صفحات من التاريخ الإسلامي

تاريخ ورجال

للناشئة

الدولة الأموية

من الميلاد إلى السقوط

جمع وإعداد

محمد قباني

دار وحي القلم

الدَّولة الأمويَّة

مِنَ الميلاد إلى السُّقوط

جمعٌ وإعداد
محمد قبَّاني



بسم الله الرحمن الرحيم

دار وحي القلم

❖ تستقبل تأليف الكتاب والمفكرين المبدعين وتشجع إمكانات التفكير وفرص النشر.

❖ دار وحي القلم:

تجمع بين الأصالة والحداثة ، وتستوحي إصداراتها من وحي الواقع ، من وحي التجربة والممارسة ، ومن رصد ما يدبر لهذه الأمة ويراد بها.

❖ دار وحي القلم:

يعنيها جديد الإبداع الذهني الذي يُشِعُّ صورة الإسلام النقية في واقع يغصُّ بالأزمات والنكبات التي تستهدف الأمة في دينها وتراثها وأخلاقها.

❖ دار وحي القلم:

تتقدم - بمعونة الله تعالى - نحو عالم كتابي من نوع آخر- وضمن خطة تعميم القراءة وتدعيم الكتابة والأخذ بيد القراء الأكارم - وقد أخذت الدار على نفسها استقبال الأسماء التي تحمل العناوين المضيئة الموضحة ضمن خطتها.

❖ دار وحي القلم: تدرك - أننا جميعاً في دار الممر لذا عليها أن تنير لنا السبيل إلى دار المقر بأمن وأمان ويسر ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

المدير العام لدار وحي القلم .

الكتاب

الدّولة الأمويّة

مِنَ الميلاد إلى السُّقوط

جمع وإعداد

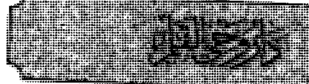
محمد قبّاني

الطبعة الأولى 1427 هـ/2006م

عدد الصفحات: 192 القياس 17 × 24

الكتب التي تصدر عن الدار

تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها



دمشق - سورية ص.ب 30297

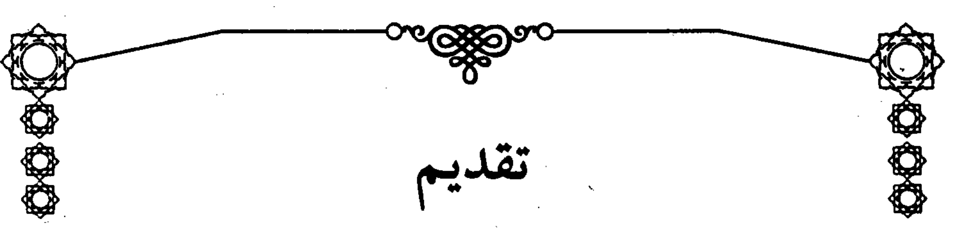
فاكس (00963 11) 2455738

هاتف (00963 93) 296818

Site: www.alkalam-sy.com

بيروت - لبنان - هاتف 653666

(009611) 6536



تقديم

الدكتور عدنان العطار
دكتوراه في التاريخ والأنساب والأنتروبولوجية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الملك العظيم، الغني ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]أحمده حمد عبد معترف بالعجز والتقصير، وأشكره على ما أعانني فيه لمراجعة هذا العمل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وهو على كل شيء قدير.

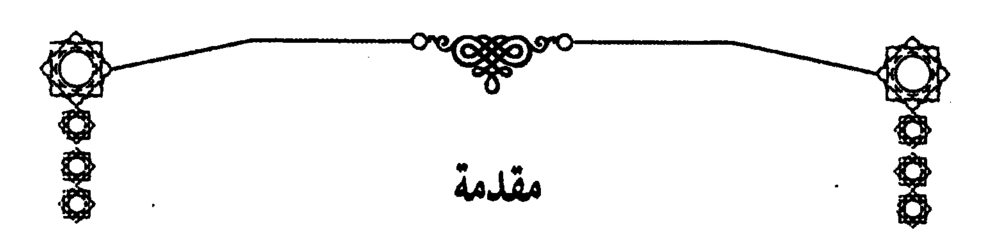
تتناول هذه الدراسة المتأنية تاريخ الخلافة الأموية من جوانبها المتعددة، وما انطوت عليه من أحداث جسام... كما بين المؤلف في دراسته هذه شخصية كلٍ من الخلفاء الأمويين وحلل أعماله وما انطوت عليه هذه الشخصية من إيجابيات كان لها الأثر الكبير في قوة الدولة وزيادة هيبتها، كما وضح سلوك بعض الخلفاء الضعاف الذين كان لهم الأثر الأكبر في ضعف الدولة وتكالب المعتدين وتآمرهم على تقويض دعائمها.. كما وضح امتداد هذه الدولة وتوسعها ودخول أهل البلاد الأوائل في عقيدتها وانصهارهم في بنيتها القوية حيث كان منهم القواد والعلماء والتجار الذين كان لهم الأثر الأكبر في تدعيم العقيدة ضمن هذه الدول المترامية الأطراف فشكلت بذلك مع الفاتحين لبنات قوية متماسكة تشد بعضها بعضاً مما جعل من هذا الصرح الكبير قوة يحسب حسابها

ولكن دخول الأعداء والمرتزقة والأعاجم ضمن نسيجها عمل على تقويض أركان هذه الدولة وانهيارها على يد أصحاب الرايات السوداء . . . وقيام الدولة العباسية . .

هذا وقد طلبت مني إدارة دار وحي القلم الموقرة التقديم لهذا الكتاب المفيد والذي يجب أن يقرأ من كل أفراد المجتمع. . . . فكتبت هذا التقديم آملاً أن تكون هذه الكلمات قد ألقت الضوء على هذا الكتاب النفيس وأرجو أن أكون أصبت الهدف الذي تصبوا إليه الدار والله من وراء القصد.

الدكتور عدنان العطار

دكتوراه في التاريخ والأنساب والأنتروبولوجية



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فهذا كتيب وجيز ضمن سلسلة الرسائل الوجيزة، يتكلم عن الخلافة الأموية فيترجم لحياة الخلفاء الأمويين ويعطي لمحة مختصرة عن الحضارة الأموية التي قامت في ظل هذه الخلافة وما رافقها من فتوحات ودخول أمم كثيرة في الإسلام وتوسع للبلاد الإسلامية وحصول نهضة ثقافية علمية واسعة. . .

هذا وعند الكلام والحديث عن التاريخ وما صاحبه من أحداث سياسية وفتوحات للأمصار ودخول الناس في الإسلام لابد من توضيح بعض الأفكار التي قد توجد بين بعض الناس من أن التاريخ الإسلامي السياسي كان فيه بعض المنازعات، أو أن الإسلام قد انتشر في الأمصار بحد السيف وكان دخول الناس فيه مجبرين. . . .

ولتوضيح هذه الأمور. . . فقد رأيت أن خير مُعين لهذا هو بعض مقتطفات من مقدمة الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى من كتابه (رجال من التاريخ)، ففيها الإجابة الشافية الوافية بإذن الله تعالى. . . أذكرها هنا لينتفع بها القارىء الكريم.

يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالىٰ: (والعجب ممن يزعم أن الإسلام قد انتشر بالسيف، هل كان مع محمد ﷺ في مكة سيف؟

والمجتمع الإسلامي الأول، الذي كان فيه مع محمد أبو بكر وعلي وخديجة وسلمان وصهيب وبلال، وآخرون ممن شرفهم الله بالسبق إلى الإسلام، هل كان معهم سيف؟!.

الإسلام انتشر بالسيف! إنها دعوى بلا دليل، والدليل القائم عليها لا معها، انشروا مصور العالم الإسلامي وانظروا، هل البلاد التي دخل إليها الإسلام عن طريق الفتح أكبر وأوسع وأكثر سكاناً، أم البلاد التي دخلها بعد انقضاء عهد الفتوح، وانطواء راياته ولا يزال يدخل إلى اليوم بلاداً جديدة؟.

هل وصلت الفتوح إلى أندونيسيا وماليزيا وأواسط أفريقيا؟ وهل بلغت كوريا واليابان أم انتشر فيها الإسلام وحده؟.

وهل أكره الفاتحون الأولون أحداً على الإسلام؟ لقد عرف التاريخ قواداً فاتحين، كالاسكندر وجنكيز وبونابرت وهتلر، وأمثال لهم كثير، فأين الآن ما فتحوه؟.

لقد كان زيتاً صببته على ماء، وهززته هزاً حتى حسبته قد مازجه وخالطه وصار معه سائلاً واحداً، فلما بطل الهز عاد الزيت زيتاً والماء ماء. بقي في البلاد غالبون ومغلوبون مفتوحة بلادهم وفاتحون.

أما الفتح الإسلامي فقد كان كاختلاط الماء بالخل، صُب ماءً على الخل، ثم انظر هل تقدر أن تفصل الخل عن الماء؟ هذه الشام ومصر والعراق والبلاد التي بلغها الفتح، هل تميز فيها الآن أبناء الجند الفاتحين، من أبناء البلاد الأوليين؟.

لقد جعلهم الإسلام أمة واحدة، ليست أمة العرب، ولا أمة الفرس،

ولا أمة الترك، ولكن أمة محمد ﷺ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[الحجرات ١٠].

الإسلام انتشر بالسيف إنها مقالة جاهل بالطبع البشري، على قائلها أن يخجل منها وأن يتوارى بها.

إن الإسلام عقيدة، والعقيدة مزيج من عقل وعاطفة، فمن سمع أن العاطفة تجيء بالقوة والبطش؟ إذا فركتك امرأتك (أي كرهتك) فهل تحمل العصا فتقول لها إما أن تحبيني وإما أن أكسر أضلاعك؟ فهل تحسبها تحبك بالإكراه ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾...[البقرة ٢٥٦]

لقد عرف التاريخ حكاماً طغاة جبارين، يُكرهون الناس حتى يكونوا لهم تابعين طائعين، يخضعون أجسادهم وجوارحهم حتى يعملوا لهم ما يُريدون، ولكن هل يستطيعون إخضاع قلوبهم حتى تمتلىء بحبهم؟ وعقولهم حتى ترى الحقائق معهم؟.

إن تاريخنا أعظم تاريخ، ولكننا أمة تجهل تاريخها. هذا التاريخ الذي ليس لأمة مثله، هذا التاريخ الذي يفيض بالحب والنبل والتضحية والبطولة والإيمان...

إن تاريخنا السياسي أنظف من كل ما يماثله من تواريخ الأمم، ولا يخلوا (على ذلك) من أمور لا يحسن أن ننشىء عليها أولادنا، أمور تقتضيها طبيعة البشر الذين يخطئون ويصيبون، ويُحسنون ويسيئون، ليسوا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمرون...

حتى المجتمع الذي كان أسمى مجتمع بشري، الذي كان (ظاهرة) لم تُسبق ولم تتكرر، مجتمع الصحابة لم يخل من منازعات ومصادمات لم يتعمدها الصحابة، ولكن من دس الدسائس بينهم، وفرق بالكذب

جمعهم. فلماذا ندرسها لأولادنا؟ لماذا؟، وقد كره علماؤنا الخوض فيها...) ا.هـ.

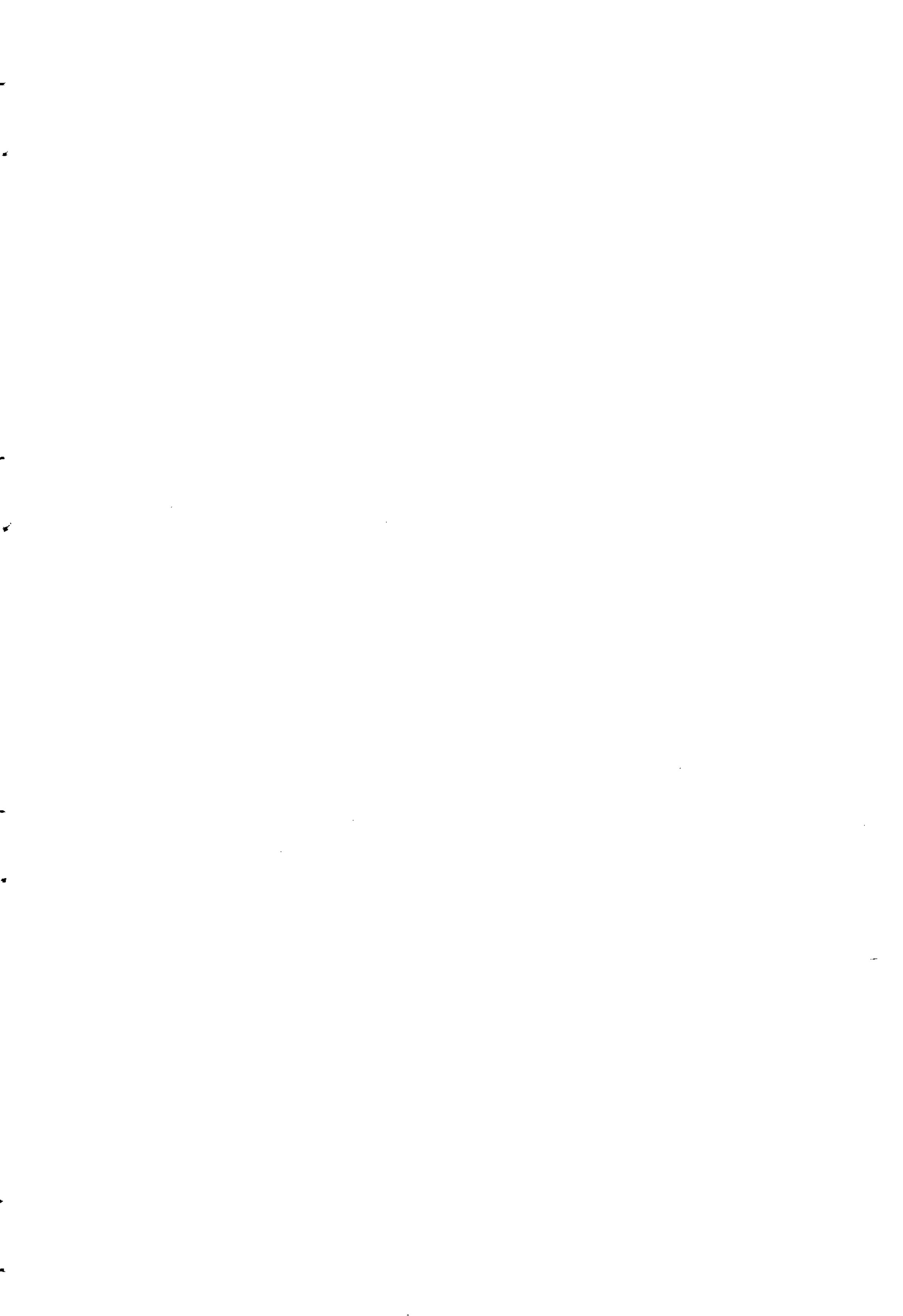
والحمد لله رب العالمين

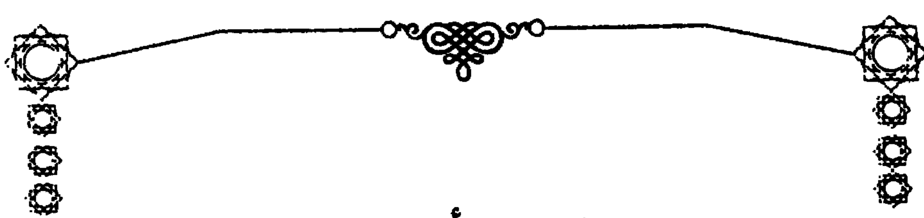
محمد محمد رسمي قباني

☆☆☆

القِسمُ الأوّل

موجز عن حياة الخلفاء الأمويين





معاوية بن أبي سفيان

(٤١-٦٠هـ)

هو (معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف)، وأمه (هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف)، ويلتقي نسبه من جهة أبيه وأمه مع نسب رسول الله ﷺ في (عبد مناف)، ولُقِّب بخال المؤمنين؛ لأن أخته (أم حبيبة) أم المؤمنين كانت زوجاً للنبي ﷺ.

وُلد قبل الهجرة بنحو خمسة عشر عاماً، وأسلم عام الفتح، سنة (٨هـ)، مع أبيه وأخيه (يزيد بن أبي سفيان) وسائر (قريش)، وأصبح منذ أن أسلم كاتباً من كتَّاب الوحي لرسول الله ﷺ، وشارك في عهد (أبي بكر الصديق رضي الله عنه) في حروب الردة، وفي فتوح الشام تحت قيادة أخيه الأكبر (يزيد)، وأبلى في ذلك بلاءً حسناً.

وعيَّنه (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) والياً على (الشام) كله، بعد وفاة أخيه (يزيد) سنة (١٨هـ)؛ لكفاءته الحربية ومهارته في السياسة والإدارة، وظل في ولايته مدة خلافة (عمر رضي الله عنه) ثم أقره (عثمان بن عفان رضي الله عنه) (٢٤ - ٣٦هـ) على ولايته، فاستمر في سياسته الحكيمة، ضابطاً لعمله، حارساً لحدود إمارته، متصدياً بكل حزم لأعداء الإسلام، محبوباً من رعيته.

خلافته:

استقبل المسلمون خلافة (معاوية) استقبالاً حسناً، واجتمعت عليه كلمتهم، وكان هو عند حسن الظن، جديراً بالمنصب الجليل، خبيراً بشؤون الحكم وآمور السياسة، تدعمه في ذلك خبرة واسعة، ونجربة طويلة في الإدارة وسياسة الناس، امتدت إلى أكثر من عشرين عاما، هي فترة ولايته على الشام، بالإضافة إلى تمتعه بكثير من الصفات الرفيعة، التي تؤهله ليكون رجل دولة من الطراز الأول. وقد أجمع المؤرخون على أنه كان لمعاوية نصيب كبير من الذكاء والدهاء والسماحة والحلم والكرم، وسعة الأفق، وقدرة فائقة على التعامل مع الناس على قدر أحوالهم، أعداءً كانوا أم أصدقاء. وقد أفرغ (معاوية) جهده كله، ومواهبه وطاقاته في رعاية مصالح المسلمين وتوطيد دعائم الدولة، ونشر الأمن والاستقرار في ربوعها، واتبع في تحقيق ذلك سياسة حكيمة تقوم على دعائم ثابتة، تتلخص فيمايلي:

١ـ العمل على تضميد جراح الأمة، وتسكين نفوسها، وتأليف قلوبها بعد فترة مضطربة من حياتها، والإحسان والتودد إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم، وبخاصة آل بيت النبي ﷺ، وقد أدت هذه السياسة إلى تجميع القلوب حوله، وتحويل الخصوم إلى أعوان وأصدقاء.

٢ـ وحسن اختياره للولاة والحكام، لأنه أدرك أنه مهما أُوتي من ذكاء وفطنة، ومقدرة وحكمة، فلن يستطيع أن يحكم الدولة وحده، ومن ثم لابد له من أعوان، يساعدونه في إدارة البلاد على خير وجه،

فاختارهم بعناية فائقة من بين أقوى الناس عقلاً، وأحسنهم سياسة، وأحزمهم إدارة، أمثال (عمرو بن العاص)، و(المغيرة بن شعبة)، و(زياد) و(عتبة) أخويه، وغيرهم.

٣ـ ومباشرته أعماله بنفسه، وتكريسه وقته وجهده للدولة وسياستها، وعدم ركونه إلى حياة الراحة والدعة، على الرغم من استعانته في إدارة الدولة بأعظم الرجال في عصره.

بهذه السياسة استقرت الدولة وسادها النظام، وعمَّها الأمن والسكينة، ولم يشذ عن ذلك سوى (الخوارج)، فأخذهم معاوية بالشدة؛ حفاظاً على سلامة الأمة، واتسمت سياسته الخارجية وبخاصة تجاه الدولة (البيزنطية) بمواصلة الضغط عليها، ومحاصرة (القسطنطينية) ـ عاصمتها ـ أكثر من مرة، وجعلها تقف موقف الدفاع عن نفسها.

الفتوحات في عهد معاوية:

فتح شمالي إفريقيا:

وصل المسلمون في أواخر خلافة (عثمان رضي الله عنه) إلى (تونس) الحالية، لكنهم لم يواصلوا فتوحاتهم بسبب الفتن التي استمرت حتى نهاية خلافة (علي بن أبي طالب رضي الله عنه) (٣٦ ـ ٤٠هـ)، فلما استتب الأمر لمعاوية سنة (٤١هـ)، كانت جبهة (شمالي إفريقيا) أولى الجبهات التي اهتم بها، لأنها كانت تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية التي عزم على تضييق الخناق عليها، فأرسل سنة (٤١هـ) حملة إلى (شمالي إفريقيا) بقيادة (معاوية بن حديج)، ثم أرسله على رأس حملة أخرى سنة (٤٥هـ)، فاستطاع أن يفتح العديد من البلاد، مثل (جلولاء) و(سوسة).

فتوحات عقبة بن نافع:

أسند (معاوية بن أبي سفيان) قيادة الجيش الفاتح إلى (عُقبة بن نافع)، وهو واحد من كبار القادة الذين لمعت أسماؤهم في الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي، ولم يكن (عُقبة) جديداً على الميدان، فقد شارك في فتح تلك البلاد منذ أيام (عمر رضي الله عنه)، واكتسب خبره كبيرة، فواصل فتوحاته في هذه الجبهة.

ولما رأى (عقبة) اتساع الميدان، وبُعد خطوط مواصلاته عن قواعده في (مصر)، شرع في بناء مدينة تكون قاعدة للجيش، ومركزاً لانطلاقاته وإمداداته، فبنى مدينة (القيروان) (٥٠ ـ ٥٥هـ) بإذن من (معاوية)، وكان لهذه المدينة شأن عظيم في الفتوحات وفي الحركة العلمية، وأثناء تأسيسها كان (عقبة) يرسل السرايا للفتح، ويدعو الناس إلى الإسلام، فدخل كثير من (البربر) ـ سكان البلاد ـ في الإسلام.

فتوحات أبي المهاجر:

ظل (عقبة بن نافع) يواصل فتوحاته ونشر الإسلام حتى عزله (معاوية) وولّى مكانه قائداً آخر، لا يقل عنه شجاعة وإقداماً، وحباً للجهاد في سبيل الله، هو (أبو المهاجر دينار)، وكان يتمتع إلى جانب مهارته العسكرية بقدر من الكياسة وحسن التصرف والفطنة، فقد أدرك أن (البربر) سكان الشمال الإفريقي قوم أشداء، ويعتدُّون بكرامتهم ويحرصون على حريتهم كالعرب تماماً، وأن سياسة اللين والتسامح قد تُجدي معهم أكثر من سياسة الشدة.

وقد نجحت سياسة (أبي المهاجر) في اجتذاب (البربر) إلى الإسلام،

وبخاصة عندما أظهر تسامحاً كبيراً مع زعيمهم (كسيلة بن لمزم)، وعامله في إجلال وإكرام، فأسلم الرجل متأثراً بتلك المعاملة، وأسلم بإسلامه طائفة كبيرة من قومه.

وفي مقابل تلك السياسة المتسامحة مع (البربر) كان (عقبة) حازماً في تعامله مع الدولة (البيزنطية) التي حاولت أن تحتفظ بالشمال الإفريقي بعد أن فقدت (مصر) و(الشام)، لكنها لم تنجح، فقد حقق (أبو المهاجر) نصراً عسكرياً عليها، مكَّنه من السير إلى الغرب، فاتحاً معظم (المغرب الأوسط) ـ الجزائر الحالية ـ ووصل إلى (تلمسان).

معاوية ونشأة الأسطول الإسلامي:

وجد المسلمون أنفسهم بعد عشر سنوات من بداية الفتوحات الإسلامية قد سيطروا على الشواطىء الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط؛ بالإضافة إلى سيطرتهم شبه الكاملة على (البحر الأحمر)، دون أن تكون لديهم قوة بحرية، فهم ليسوا أهل بحر، بل هم أهل صحراء، وإذا كانت لدى بعضهم خبرة بحرية كأهل (اليمن) و(الخليج)، فهي خبرة تجارية وليست قتالية، ولذا كان من الضروري أن يمتلكوا قوة بحرية تمكنهم من الدفاع عن الشواطىء التي امتلكوها.

وكان (معاوية بن أبي سفيان) والي الشام أول من فطن إلى ذلك، ورفع الأمر إلى الخليفة (عمر بن الخطاب رضي الله عنه)، شارحاً له أهمية ذلك، لأنه عانى في فتح مدن الشام الساحلية عناءً شديداً بسبب وجود الأسطول البيزنطي، غير أن (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) رفض الفكرة تماماً، خوفاً على المسلمين من أهوال البحار؛ إذ لم تكن

للمسلمين خبرة بالحروب البحرية، كما كان يرى أنّ الوقت لا يزال مبكراً للدخول في ذلك الميدان الخطر، ولكن أمر (معاوية) أن يحصن الشواطىء بالحصون، ويملأها بالمقاتلين، فامتثل (معاوية).

وفي خلافة (عثمان بن عفان رضي الله عنه) (٢٤ ـ ٣٥هـ) رفع إليه (معاوية) طلبه القديم بإنشاء أسطول بحري، فرفض (عثمان رضي الله عنه) في بادىء الأمر، لكنه عاد فوافق بعد ما اقتنع بأهمية المشروع، لكنه اشترط أن يكون الجهاد البحري تطوعاً، ولا يكره عليه أحد.

بدأ (معاوية) على الفور في تحقيق مشروعه، فشرع في بناء الأسطول مستغلاً كل الإمكانات الموجود في (مصر) و(الشام) لصناعة السفن، ولم تمضِ أربع سنوات حتى ظهر إلى الوجود أسطول إسلامي كبير، نجح في فتح (جزيرة قبرص) سنة (٢٨هـ)، وهزم الأسطول البيزنطي في موقعة (ذات الصواري).

معاوية وحصار (القسطنطينية):

١ ـ الحصار الأول:

وضع (معاوية بن أبي سفيان) منذ أن وُلِّى الخلافة أهدفاً سياسية، كان في مقدمتها فتح مدينة (القسطنطينية)، عاصمة الدولة البيزنطية، العدو اللدود للدولة الإسلامية، ولعله كان يستهدف بسقوطها سقوط الدولة نفسها، كما هو الحال بالنسبة إلى دول الفرس التي لم تستطع الصمود بعد سقوط (المدائن) عاصمتها.

وكانت (القسطنطينية) تُعدُّ من أمنع المدن في العالم، لموقعها الفريد على القرن الذهبي الممتد في مياه (خليج البسفور)؛ حيث تحيط بها

المياه من الشرق والشمال والجنوب، أما في الناحية الغربية المتصلة بالبَرّ، فقد أقام الأباطرة (البيزنطيون) سلسلة من الأسوار والأبراج لحمايتها من أية هجمات.

ولم يثنِ ذلك كلُّه عزيمة (معاوية) عن فتح عاصمة البيزنطيين، فاستولى على الجزر البيزنطية الواقعة شرقي (البحر المتوسط).

مثل: (رودس)، و(كريت)، و(أرواد)؛ ليتخذها محطات للأسطول الإسلامي، تمهيداً لغزو (القسطنطينية).

ولما أكمل استعداداته جهز أول حملة بحرية إليها، بقيادة (سفيان بن عوف) وجعل ابنه (يزيد) أميراً شرفياً عليها، سنة (٤٩ هـ)، وشارك في هذه الحملة عدد من الصحابة، مثل (عبد الله بن عمر)، و(عبد الله بن عباس)، و(أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم).

ولم تنجح هذه الحملة في تحقيق أهدافها؛ بسبب مناعة المدينة، وبرودة الجو الشديدة على العرب، فعادوا بعد أن استشهد عدد من الأبطال، منهم (أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه) الصحابي الجليل.

وقد تنبأ الرسول ﷺ بهذه الغزوة، ووعد أهلها المغفرة، فقال: (أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم)[(١)].

٢ـ الحصار الثاني:

على الرغم من عدم التوفيق الذي لحق الحملة الأولى، فإن (معاوية) لم ييأس، وأعد حملة أخرى، وفرض الحصار على المدينة سبع سنوات

(١) رواه البخاري في صحيحيه برقم ٢٩٢٤كتاب: الجهاد والسيرة باب: ما قيل في قتال الروم.

(٥٤ ـ ٦٠هـ)، واقتصرت العمليات الحربية على فصلي الربيع والصيف؛ لصعوبة القتال في الشتاء.

وقد أبلى المسلمون في ذلك الحصار بلاءً حسناً، وتحمَّلوا الصعاب والمشقات، لكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، فقد فاجأ البيزنطيون المسلمين بسلاح لم يكن لهم به عهد، عُرف باسم (النار الإغريقية) وهو مركب كيميائي يتكوَّن من النفط والكبريت والقار، كانوا يشعلونه بالنار، ويقذفون به السفن الإسلامية، فتشتعل بها النيران، ولم يجد (معاوية) بدّاً من رفع الحصار وعودة الجيش إلى (دمشق).

ثورات الخوارج في عهد معاوية:

لجأ الخوارج إلى القوة واستخدام السيف في فرض أفكارهم وآرائهم على الناس، وأبدوا في صراعهم الدموي مع الدولة الأموية كثيراً من ضروب الشجاعة والتضحية والإقدام وكانت الأعداد القليلة منهم تهزم جيوشاً جرارة للدولة، ولو أن شجاعتهم وبطولاتهم اتجهت اتجاهاً صحيحاً، ووحدوا جهودهم مع الدولة الأموية في مجال الفتوحات الإسلامية ومحاربة أعداء الإسلام، لكان ذلك أجدى وأنفع، والعجيب أن أغلبهم لم يكونوا من طلاب الدنيا، والتطلع إلى المال والمناصب، وإنما كانوا طلاب آخرة، ولكنهم أخطئوا الطريق إليها، كما قال لهم (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه).

أعلن الخوارج وبخاصة (الأزارقة) حرباً شعواء على الدولة الأموية منذ قيامها، ولم تفلح معهم سياسة (معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه) ـ القائمة على التسامح وسعة الأفق، فثاروا في وجهه سنة (٤١هـ) ـ أي عام الجماعة ـ قبل أن يغادر (الكوفة)، وكان أول من ثار عليه (عبد الله بن

أبي الحوساء) في مكان قريب من (الكوفة)، ثم ثار عليه (المستورد بن عُلَّنة الطائي).

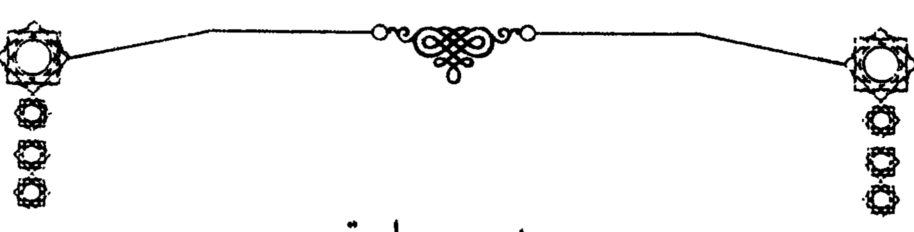
وكان عجيباً أن تشب هذه الثورات في (الكوفة) أيام واليها (المغيرة بن شعبة) الذي انتهج سياسة متسامحة مع الناس كلهم، ولم يشأ أن يزيد في آلام الناس في (العراق) أو ينكأ جروحهم بعد الحروب الكثيرة التي عانوها في (الجمل) و(صفين).

وكان حرياً بالخوارج أن يركنوا إلى الهدوء ويبتعدوا عن سياسة العنف إزاء سياسة التسامح التي انتهجها (المغيرة)، لكنهم تمرَّدوا وثاروا، فاضطر (المغيرة) إلى التصدي لهم والقضاء على ثوراتهم.

ثم ازداد ضغط الدولة عليهم منذ أن وُلِّيَ (زياد بن أبى سفيان) ولاية (البصرة) سنة (٤٥هـ) فأخذ يتعقبهم في (البصرة)، في الوقت الذي يتعقبهم فيه (المغيرة بن شعبة) في (الكوفة)، حتى ضيّقا عليهم الخناق، وضربا عليهم بيد من حديد، حتى ضعفت شوكتهم.

وتُوفِّي (معاوية) في شهر رجب سنة (٦٠هـ).

☆☆☆



يزيد بن معاوية

(٦٠ ـ ٦٤هـ)

هو (يزيد بن معاوية بن أبى سفيان) وأمه (ميسون بنت مخول الكلبية). ولد في (دمشق) سنة (٢٦هـ) في خلافة (عثمان بن عفان رضي الله عنه)، حين كان أبوه والياً على الشام، فنشأ في بيت إمارة وجاه، وقد عُني أبوه بتربيته تربية عربية إسلامية، فأرسله وهو طفل إلى البادية عند أخواله من (بنى كلب)، فشب شجاعاً كريماً، أبي النفس، عالي الهمة، شاعراً فصيحاً، وأديباً لبيباً، حاضر البديهة، حسن التصرف في المواقف.

ويعده العلماء من الطبقة الأولى من التابعين، ولبعضهم رأي حسن فيه مع أخذهم عليه ميله إلى حياة اللهو في صدر شبابه، فلقبه (الليث بن سعد) فقيه (مصر) الكبير بلقب (أمير المؤمنين)، وقال عنه (ابن كثير): (وقد كان في يزيد خصال محمودة من الكرم والفصاحة والشعر والشجاعة، وحسن الرأى في الملك، وكان ذا جمال، حسن المعاشرة).

ومنذ أن عزم أبوه على توليته الخلافة بعده أخذ يحمله على الجد والحزم، وترك حياة اللهو والترف، استعداداً لتولي هذا المنصب الجليل، وعهد إليه بالقيام بالمهام الصعبة، فأرسله على رأس الحملة العسكرية التي وجهها في سنتي (٤٩ ـ ٥٠هـ) لحصار القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وكان تحت قيادته بعض كبار الصحابة.

توليته الخلافة:

كان (يزيد) غائباً عن (دمشق) عند وفاة أبيه في رجب سنة (٦٠هـ) فأخذ البيعة له (الضحاك بن قيس)، ولما حضر جاءته الوفود وأمراء الأجناد، لتعزيته في أبيه وتهنئته بالخلافة وتجديد البيعة له.

وقد ترسَّم (يزيد) خطى أبيه، واستوعب وصيته له التي توضِّح له معالم طريقه السياسي، وتبيِّن له كيفية التعامل مع المشكلات وأحوال الرعية، وهذه الوصية تُعدُّ من أهم الوثائق السياسة في فن الحكم وإدارة الدول.

حافظ (يزيد) على سلامة الدولة وهيبتها، وحمى حدودها، واستمرت حركة الفتوحات في عهده، فوصل (عقبة بن نافع) إلى شواطىء (المحيط الأطلسي)، مخترقاً الشمال الإفريقي كله، وعبرت طلائع الفتح نهر (جيحون) لفتح بلاد (ما وراء النهر) (آسيا الوسطى).

الفتوحات الإسلامية في عهد يزيد:

ولاية عقبة بن نافع الثانية:

أعاد الخليفة (يزيدُ بن معاوية) (عقبةَ بن نافع) مرة أخرى إلى (شمالي إفريقيا)، فواصل جهود (أبي المهاجر)، وقام بحملته التي اخترق بها الساحل كله في شجاعة وجرأة حتى بلغ شاطىء (المحيط الأطلسى)، وأوطأ أقدام فرسه في مياهه، وقال قولته المشهورة:

(اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد، أقاتل من كفر بك حتى لا يُعبد أحداً دونك).

وفي أثناء عودة (عقبة) من غزوته المظفرة تعرض لكمين نصبه له البيزنطيون بمساعدة (كسيلة) زعيم (البربر)، الذي كان (عقبة) قد أهانه، فبينما هو يسير في عدد قليل من جنوده يبلغ زهاء ثلاثمائة جندي انقضت القوات البيزنطية عليه وعلى من معه عند بلدة (تهودة) فاستشهدوا جميعاً سنة (٦٣هـ).

ومما أسهم في وقوع الكارثة أن (عقبة) قد وقع في خطأ عسكري كبير، إذ سرَّح معظم جيشه، وأمرهم بالسير أمامه، فابتعدوا عنه لمسافة طويلة، مما جعل الجيش البيزنطي ينفرد به ويهزمه هزيمة ثقيلة أضاعت كل الجهود التي بذلها المسلمون في فتح تلك البلاد، واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى الخلف، ولم يستطيعوا الاحتفاظ (بالقيروان)، وعادوا إلى (برقة).

ثم تسلَّم (زهير بن قيس البلوى) قيادة الجيش خلفاً لعقبة بن نافع سنة (٦٣هـ)، وعزم على الثأر من (البيزنطيين) و(البربر)، لكنه لم يستطع أن يحقق هدفه إلا في سنة (٦٩هـ)، نظراً لانشغال الدولة الأموية بالأحداث والفتن الخطيرة التي حدثت في الداخل بعد وفاة (يزيد بن معاوية) سنة (٦٤هـ).

الثورات في عهد يزيد بن معاوية:

ثورة الحسين بن علي:

لم يقم (الشيعة) بأي ثورة ضد (معاوية بن أبى سفيان)، طول مدة خلافته (٤١ ـ ٦٠هـ)، وإنما اندلعت أولى ثوراتهم بقيادة (الحسين بن علي) في خلافة (يزيد بن معاوية)، بعد أن رفض (الحسين) بيعة (يزيد)،

وكان قد رفض من قبل تعيينه ولياً للعهد في زمن أبيه.

اعتصم (الحسين) (بمكة المكرمة)، وهناك تولت عليه رسائل أهل (الكوفة) يطلبون منه الحضور إليهم؛ ليبايعوه بالخلافة، فاستجاب لهم على الرغم من تحذير (ابن عباس رضي الله عنه) ـ وهو من أقرب الناس إليه ـ من الذهاب إلى (العراق)، لأنها دعوة من لا أمان أو عهد لهم، وقد خذل أهل العراق أباه من قبل، لكنه أصر على الذهاب، وأرسل ـ قبل أن يتحرك ـ ابن عمه (مسلم بن عقيل بن أبي طالب) إلى (الكوفة)، ليستطلع الأمر، ويكتب له بحقيقة الموقف هناك.

وصل (مسلم بن عقيل) إلى (الكوفة)، فاستقبله الناس بحماس شديد وبحفاوة بالغة، وبايعه منهم نحو ثمانية عشر ألفاً، فانخدع بهم بعد أن تغافل (النعمان بن بشير) والي (الكوفة) عنه، فكتب إلى (الحسين) يطمئنه، ويطلب منه الحضور إلى (الكوفة).

ولما علم (يزيد) بما فعله (مسلم) في (الكوفة)، اضطر إلى عزل (النعمان بن بشير) عن ولايتها لتغاضيه عما يقوم به (مسلم)، وولَّى مكانه (عبيد الله بن زياد)، فحضر على الفور، وقبض على (مسلم) وقتله بعد أن انفضت عنه الآلاف التي تجمعت حوله من أهل (الكوفة)، وتركوه يلقى مصرعه وحده.

وفي أثناء هذه الأحداث المتلاحقة كان (الحسين) في طريقه إلى (الكوفة)، فلما وصلته أخبار (مسلم)، وتخاذُل الكوفيين عنه، قرر العودة إلى (مكة)، لكن إخوة (مسلم) أصروا على مواصلة السير، طلباً لثأر أخيهم، فلم يجد (الحسين) بُدًّا من مطاوعتهم، وكان هذا من الأخطاء

الكبيرة، فالذي قتل (مسلم) دولة لا فرد، وليس في استطاعتهم - وهم قلة في عددهم - التصدِّي للدولة، فقد كانوا نحو سبعين رجلاً.

واصل (الحسين) سيره حتى بلغ (كربلاء) بالقرب من (الكوفة)، فوجد جيشاً كبيراً في انتظاره بقيادة (عمر بن سعد بن أبي وقَّاص) يزيد عددُه عمَّا معه من أفراد بنحو خمسين مرة، وعسكرت القوتان دون تكافؤ بينهما في القوة، فعرضَ (الحسين) على (عمر بن سعد) ثلاثة حلول للخروج من هذا المأزق إمَّا أن يتركه يعود إلى (مكة)، وإما أن يتركه يذهب إلى ثغر من ثغور الإسلام فيجاهد في سبيل الله، وإما أن يدعه يذهب إلى (دمشق) لمقابلة الخليفة (يزيد بن معاوية) ويضع يده في يده.

وكانت هذه الخطوة من (الحسين) - رضي الله عنه - طيبة؛ لأن ذلك معناه أنه أنهى ثورته وجنح إلى السلام، كما سُرَّ بهذه الخطوة (عمر بن سعد)، لأنه لم يكن راغباً في مواجهة (الحسين)، ولكن عليه أن يستشير (عبيد الله بن زياد)، فهو الوالي وصاحب القرار، فرحب بالفكرة لأول وهلة، لأن فيها حقن الدماء، وبخاصة دم (الحسين) حفيد رسول الله ﷺ، غير أن شيطاناً من شياطين الإنس يُدعى (شمر بن ذي الجوش) أشار على (ابن زياد) ألا يقبل من (الحسين) إلا أن يسلِّم نفسه باعتباره أسير حرب، وأن يرسله بهذه الصفة إلى الخليفة (يزيد بن معاوية) في (دمشق).

وكان من الطبيعي أن يرفض (الحسين بن علي) هذا الطلب، فالموت عنده أهون عليه من هذا كما قال هو نفسه، ولو أن مشركاً أو ذمياً كان في مكان (الحسين)، وعرض عليهم هذه الحلول السلمية لكان عليهم قبولها، لكن (ابن زياد) خضع لهذه الفكرة الشيطانية، ورفض (الحسين)

تسليم نفسه اسير حرب، فدارت معركة غير متكافئة بين الفريقين في (كربلاء) في العاشر من المحرم سنة (٦١هـ)، استُشْهِد فيها (الحسين)، رضي الله عنه، وقتل من كان معه من أهل بيته، ولم ينجُ من القتل إلا ابنه (علي) الملقب بزين العابدين.

وكانت نتيجة المعركة مأساة مروعة، أدمت قلوب المسلمين جميعاً حزناً على (الحسين)، ريحانة الرسول ﷺ، كما كانت سبباً من أسباب زوال الدولة الأموية، وامتد أثرها في تفريق كلمة المسلمين إلى يومنا هذا.

ولا شك أن مسؤولية دم (الحسين) تقع في المقام الأول على أهل (الكوفة) الذين أخرجوه ثم خذلوه، ولذلك يروى أن آخر جملة قالها قبل وفاته (اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا)، ثم على (عبيد الله بن زياد) الآمر المباشر بقتاله، أما (يزيد بن أبى سفيان) فإنه ـ وإن لم يأمر بقتل (الحسين)، ولم يسعد بذلك ـ كان يجب أن تكون أوامره صريحة بعدم قتال (الحسين)، لا سيما أن أباه (معاوية) قد أوصاه بذلك.

ثورة (الخوارج):

استأنف الخوارج نشاطهم على نحو أعنف بعد وفاة (معاوية) سنة (٦٠ هـ)، فأرسل إليهم (يزيد بن معاوية) حملة بقيادة (عبيد الله بن زياد)، فتصدى لهم بقوة، ثم ازدادت ثوراتهم بعد وفاة (يزيد) سنة (٦٤هـ)، مستغلِّين في ذلك حالة الفوضى التي سادت (العراق).

وكان يمكن لعهد (يزيد) أن يكون امتداداً لعهد أبيه، استقراراً واستتباباً، لولا عدة حوادث خطيرة، عكَّرت صفو الأمة الإسلامية،

وألقت بظلال سوداء على عهد (يزيد)، وطمست إنجازاته، منها:

١ـ حادثة استشهاد (الحسين بن علي) ـ رضي الله عنهما ـ في (كربلاء) سنة (٦١هـ)

٢ـ وغزو (المدينة المنورة) سنة (٦٣هـ) لقمع الثورة التي قام بها أهلها ضده دون سبب قوي.

٣ـ غزو (مكة المكرمة) للقضاء على دولة (عبد الله بن الزبير) سنة (٦٤هـ).

ولم تطل أيام (يزيد)، فقد توفي في شهر ربيع الأول سنة (٦٤هـ)، وهو في الثامنة والثلاثين من عمره وتولى بعده الخلافة ابنه معاوية بن يزيد وهو (معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان)، وأمه (أم هاشم بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة)، ومع أنه لم ينهض بعمله باعتباره خليفة، فإنه أخذ مكانه في سلسلة خلفاء الدولة الأموية، ويسميه بعض المؤرخين (معاوية الثاني)؛ لأن أباه قد عهد إليه بالخلافة بعده، طبقاً لنظام الوراثة الذي أسسه جده (معاوية)، وقد بايعه الناس بعد وفاة أبيه، لكنه أعلن في صراحة أنه عاجز عن النهوض بمسؤولية الخلافة، وعليهم أن يبحثوا عن شخص كفء من أهل الصلاح والتقوى لتحمل عبء مسؤولية منصب الخلافة.

ولم تطل حياة ذلك الشاب الورع، حيث تُوفِّى بعد أبيه (يزيد) بنحو أربعة أشهر، أو بعد أربعين يوماً في قول آخر.

☆☆☆



مروان بن الحكم

(٦٤ ـ ٦٥هـ)

هو (مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس)، ولد في السنة الأولى من الهجرة، ولذلك يعده بعض العلماء في الصحابة، وهو ابن عم الخليفة (عثمان بن عفان) رضي الله عنه، وكان كاتبه وأمين سره، وولاه (معاوية بن أبي سفيان) في خلافته (المدينة المنورة) أكثر من مرة؛ ثقة منه بقدرته وخبرته السياسية التي اكتسبها طول عمله مع (عثمان رضي الله عنه).

وكان (مروان) أثناء ولايته على (المدينة) يتحرَّى العدل، ولا يصدر أمراً إلا بعد استشارة صلحاء الناس، ومن مآثره التي جلبت ثناء الناس عليه أنه جمع صيعان (المدينة) التي يكيلون بها، وأخذ بأعدلها وأضبطها كيلاً، فنسبه الناس إليه، وقالوا: (صاع مروان)، وقال عنه الإمام (أحمد بن حنبل): (كان عند مروان قضاء ـ يقصد كان عادلاً في قضائه ـ وكان يتبع قضايا عمر بن الخطاب رضي الله عنه)، ويصفه المؤرخون بالشجاعة والشهامة، والدهاء وحسن السياسة.

توليته الخلافة:

اضطرب أمر (بني أمية) بعد رفض (معاوية بن يزيد) أن يتولى الخلافة، أو يعهد بالأمر إلى أحد من أهل بيته، وفي هذه الأثناء أعلن

(عبد الله بن الزبير) نفسه خليفة للمسلمين سنة (٦٤ هـ) في (مكة)، فبايعة (العراق) و(مصر)، حتى (الشام) نفسها معقل الأمويين بايعه معظم أقاليمها، وبدا الأمر كما لو أن دولة الزبيريين قامت، ودولة الأمويين بادت.

كان (مروان بن الحكم) وبنوه يعيشون في (المدينة المنورة)، فأخرجهم منها (عبد الله بن الزبير) فرحلوا إلى الشام، حيث تجمع هناك كل أنصار (بني أمية) وولاتهم، من أمثال: (عبيد الله بن زياد)، و(الحصين بن نمير)، فأخذوا يشجعون (مروان) على تحمل قيادة البيت الأموي، ومنع دولتهم من السقوط.

وبعد مداولات طويلة بين زعماء القبائل استغرقت عدة شهور عقد مؤتمر في (الجابية) بالقرب من (دمشق)، في شهر ذي القعدة سنة (٦٤هـ)، بويع فيه (مروان بن الحكم) بالخلافة، باعتباره أكبر أبناء البيت الأموي سناً، وأكثرهم تجربة.

كان على (مروان) بعد بيعته أن يثبت جدارته بهذا المنصب وأهليته له، بأن يسترد نفوذ (بني أمية) وسلطانهم في الشام، معقلهم الرئيسي، الذي خضع معظمه (لعبد الله بن الزبير)، ومن ثم خاض (مروان) مع أنصار (ابن الزبير) معركة كبيرة في (مرج راهط)، شرقي (دمشق) في نهاية سنة (٦٤هـ)، وكان النصر فيها حليف (مروان)، وبداية الطريق لاستعادة الأمويين لدولتهم التي كانت قاب قوسين أو أدنى من الزوال.

ولم يضع (مروان) وقتاً بعد هذا الانتصار، فعاد إلى (دمشق)، حيث تلقى وفود المهنئين والمبايعين. وبعد فترة قصيرة اطمأن فيها على استقرار الأوضاع في الشام، ترك ابنه (عبد الملك) في (دمشق) نائباً عنه

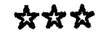
في حكمها، وتوجه إلى (مصر) التي كانت تحت حكم (عبد الله بن الزبير)، فاستردها بسهولة، وأقام بها نحو شهرين، ورتَّب فيها أوضاعها، وعيَّن ابنه (عبد العزيز) والياً عليها، وعاد هو إلى (دمشق)، ليستأنف صراعه مع (ابن الزبير)، لكن الموت عاجله سنة (٦٥هـ) بعد حكم دام عشرة شهور.

ثورة التوابين في عهد (مروان بن الحكم):

(التوابون) مجموعة من (الشيعة) الذين أحسوا بخطئهم الفادح حين دعوا (الحسين) إلى (الكوفة) ليبايعوه خليفة وإماماً، ثم خذلوه لما حضر إليهم، لذلك قرروا الثأر له، وسمُّوا أنفسهم التوابين، أي الذين تابوا عن تقصيرهم في نصرته، وتزعمهم (سليمان بن صرد الخزاعي).

وقد اجتمع لهم عدة آلاف من الناس، قيل إنهم بلغوا ستة عشر ألفاً، وبايعوا (ابن صرد) على الموت طلباً لثأر (الحسين)، لكنهم انفضُّوا عنه حين جدَّ الجد، كما انفضوا عن (الحسين) من قبل، ولم يبقَ معه سوى نحو ثلاثة آلاف، توجه بهم لقتال الأمويين، فتصدَّى لهم (عبيد الله بن زياد) في جيش ضخم، بلغ عدده نحو ستين ألفاً، فهزمهم وقتل معظم التوابين وعلى رأسهم زعيمهم (سليمان بن صرد)، في مكان يُسمَّى (عين الوردة) في شمالي (العراق) سنة (٦٥ هـ).

وهكذا أضيفت إلى مآسي المسلمين مأساة أخرى، أدَّى إليها الاندفاع الأهوج، والحماس الطائش من جانب التَّوابين، وهم يعلمون أنهم يواجهون بأعدادهم القليلة جيوش الدولة التي لن تتهاون مع من يخرج عليها ويهدد أمنها.





عبد الملك بن مروان

(٦٥ ـ ٨٦هـ)

هو (عبد الملك بن مروان بن الحكم)، ولد في (المدينة) سنة (٢٦هـ) في خلافة (عثمان بن عفان رضي الله عنه) ونشأ بها نشأة علمية، وتتلمذ لكبار الصحابة، من أمثال (عبد الله بن عمر)، و(أبي سعيد الخدرى)، و(أبى هريرة) رضي الله عنهم، وبرع في الفقه حتى عُدَّ من فقهاء (المدينة)، وقد تواترت الأخبار عن فقهه وغزارة علمه ورجاحة عقله، قال عنه (الذهبي): (ذكرته لغزارة علمه)، وقال (الشعبي): (ما جالستُ أحداً إلا رأيت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان)، واحتج الإمام (مالك بن أنس) بقضائه.

ومكث (عبد الملك) معظم حياته قبل أن يلي الخلافة في (المدينة المنورة)، لم يغادرها إلا لحج أو لجهاد، فقد اشترك في فتح (شمال إفريقيا) في عهد (معاوية بن أبي سفيان).

عبد الملك ووحدة الدولة الإسلامية:

تولي (عبد الملك) الخلافة بعد وفاة أبيه في رمضان سنة (٦٥ هـ)، ووجد الدولة الإسلامية قد تنازعها خمس دول: دولته هو، وتتكون من (مصر) و(الشام) وعاصمتها (دمشق)، ودولة (عبد الله بن الزبير) وتتكون من (الحجاز) وبعض (العراق) و(بلاد فارس)، وعاصمتها (مكة المكرمة)، ودولة للشيعة أقامها (المختار بن ابي عبيد الثقفي) في جزء من

(العراق)، وعاصمتها (الكوفة)، ودولة للخوارج الأزارقة في إقليم (الأهواز)، جنوبي شرقي (العراق)، ودولة للخوارج النجدات في إقليم (اليمامة) في شرقي الجزيرة العربية وجنوبي شرقيها.

رأى (عبد الملك) أن هذه الدول التي برزت خلال الفوضى التي عمَّت بعد وفاة (يزيد بن معاوية) لا رابط يجمع بينها سوى العداء لبني أمية، فتركهم في البداية يأكل بعضهم بعضاً، فاشتبك (ابن الزبير) مع (المختار الثقفي)، وقضى عليه تماماً حين أرسل له جيشاً بقيادة أخيه (مصعب بن الزبير)، فتمكن من هزيمته سنة (٦٧هـ)، وبذلك تخلص (عبد الملك) من واحد من أقوى خصومه دون أن يبذل أي جهد.

وكان (المختار بن عبيد الله) من الشخصيات التي كانت تسعى إلى السلطة بأي ثمن، وتقلَّب من العداء لآل البيت، إلى الاتصال (بعبد الله بن الزبير) حين أعلن نفسه خليفة سنة ٦٤هـ، فلما لم يجد تجاوباً منه، انطلق إلى (الكوفة) التي كانت تموج بالفوضى بعد هزيمة التوابين فادَّعى أنه جاء مندوباً من عند (محمد بن علي بن أبي طالب)، المشهور بابن الحنفية للمطالبة بدم الحسين والأخذ بثأره.

ولم يكن (المختار) صادقاً في دعواه، وإنما هداه تفكيره الانتهازي إلى استخدام مأساة (الحسين) ذريعة للوصول إلى مطالبه، وكان الشيعة في تلك الفترة يفتقرون إلى الزعامة بعد مقتل (سليمان بن صرد الخزاعي)، فلما وجدوا (المختار) ـ وكان بارعاً في الحيل وخداع الناس ـ التفوا حوله وأسلموا له القيادة.

ازداد نفوذ (المختار) بعد أن حالفه التوفيق فانتصر على جيش أموي،

وقتل قائده (عبيد الله بن زياد) في معركة عند نهر (الخازر) بالقرب من (الموصل)سنة (٦٧هـ)، ولما كان (ابن زياد) يعد المسؤول الأول عن قتل (الحسين) في (كربلاء)، فقد دعم مقتله (المختار)، وزاد من ثقة الشيعة به ووقوفهم خلفه، فاستفحل أمره، وعظم شأنه، واتسع نفوذه وقامت له دولة في (الكوفة)، اتسعت رقعتها لتشمل معظم (العراق).

لم ينعم (المختار) بدولته طويلاً، فقد أزعج صعود أمره (آل الزبير) في (مكة)، و(عبد الملك بن مروان) في (دمشق)، فأرسل (عبد الله بن الزبير) أخاه (مصعباً) بجيش ضخم، قضى به على (المختار) في سنة (٦٧هـ).

وانتهت بذلك حركة واحد من كبار المغامرين المتطلعين إلى السلطة في العصر الأموي، ولم تنفعه مزاعمه وادعاءاته حب آل البيت والثار لقتلاهم، فقد انكشفت حيله، وتخلّى عنه الشيعة وأسلموه إلى مصيره المحتوم.

عبد الله بن الزبير والدولة الأموية:

هو (عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه)، وأمه (أسماء بنت أبي بكر الصديق)، ولد في العام الأول من الهجرة، وهو أول مولود للمسلمين في (المدينة)، وكانت سعادتهم به عظيمة، لأن اليهود أشاعوا أنهم سحروا المسلمين، فلن يُولَد لهم ولد.

نشأ (عبد الله رضي الله عنه) نشأة إسلامية خالصة في بيئة طيبة طاهرة، معطرة بعبق النبوة، فأبوه (الزبير) ابن عمة رسول الله ﷺ (صفية بنت عبد المطلب)، و(أبو بكر الصديق رضي الله عنه) جد (عبد الله) لأمه،

و(عائشة) أم المؤمنين خالته، وكانت تكنى به، ويقال لها: (يا أم عبد الله)، لأنها لم تنجب ولداً من رسول الله ﷺ، ويُعد من الصحابة، لأنه عاش نحو عشر سنوات في حياة النبي ﷺ.

كان (عبد الله رضي الله عنه) شجاعاً، ذكي الفؤاد، معتداً بنفسه، ذا طموح كبير، شارك في الفتوحات وهو حدث صغير، فحضر معركة (اليرموك) سنة (١٣ هـ)، واشترك في (فتح شمالي إفريقيا) في خلافة (عثمان بن عفان)، رضي الله عنه، ولما حضر (عثمان) في داره كان (عبد الله رضي الله عنه) من المدافعين عنه، وحضر معركة (الجمل) مع أبيه.

ولما ولى (معاوية بن أبي سفيان) الخلافة سنة (٤١هـ) استمال إليه (عبد الله بن الزبير رضي الله عنه) وأحسن إليه كما أحسن إلى غيره من الصحابة وأبنائهم، فقابل ذلك بحسن الطاعة، بل شارك في الغزو تحت قيادة ابنه (يزيد) في فتح (القسطنطينية)، وظلت علاقته بمعاوية على ما يرام إلى أن أخذ البيعة لابنه (يزيد) فأظهر (عبد الله) معارضته الشديدة لذلك.

وبعد وفاة (معاوية بن أبي سفيان) رفض أن يبايع (يزيد)، وركن إلى (مكة المكرمة)، وسمَّى نفسه (العائذ بالبيت)، لكنه لم يعلن رغبته في الخلافة لوجود (الحسين بن علي)، فلما استُشهد في (كربلاء) وتوفِّي (يزيد بن معاوية) بعد ذلك سنة (٦٤هـ) أعلن نفسه خليفة في (مكة). ولما سادت الفوضى الدولة الأموية بعد موت (يزيد) ورفض ابنه (معاوية) قبول الخلافة، تلفت الناس حولهم، فلم يجدوا أفضل من (عبد الله بن الزبير رضي الله عنه)، فبايعوه، واتسعت دولته حتى شملت معظم أنحاء الدولة الإسلامية، عدا (الأردن) في (الشام)، غير أن (بني أمية) استطاعوا أن يوحدوا كلمتهم، ويبايعوا (مروان بن الحكم) بالخلافة سنة (٦٤هـ)،

فبدأ عهده بالقضاء على أنصار (ابن الزبير) في الشام في موقعة (مرج راهط) الشهيرة في العام نفسه، ثم زحف إلى (مصر)، فاستردها بسهولة من والي (ابن الزبير) عليها، وعاد إلى (دمشق). وتُوفِّى سنة (٦٥هـ)، فخلفه ابنه (عبد الملك بن مروان)، الذي أخذ على عاتقه القضاء على (ابن الزبير) وغيره من خصوم الدولة الأموية، فهزم جيوش (ابن الزبير) بقيادة أخيه (مصعب) في (العراق) سنة (٧٢ هـ)، ثم أرسل (الحجاج بن يوسف الثقفي) على رأس جيش للقضاء على (ابن الزبير) في (مكة)، فنجح في ذلك، وقتل (ابن الزبير) في جمادى الأولى سنة (٧٣هـ).

وبمقتله انهارت دولته التي استمرت نحو تسع سنوات (٦٤ ـ ٧٣هـ)، وكانت في مبدأ أمرها تسيطر على معظم الدولة الإسلامية.

كما نجح عبد الملك في القضاء على دولة (الخوارج)، وبذلك تخلَّص من خصومه، وقضى على الانقسامات التي أضعفت الدولة الإسلامية، وأعاد إليها وحدتها، ولذا عدَّه المؤرخون المؤسس الثاني للدولة الأموية، وعدُّوا سنة (٧٣هـ) عام الجماعة الثاني:

أسباب سقوط دولة عبد الله بن الزبير:

عندما بايع الناس (عبد الله بن الزبير رضي الله عنه) بالخلافة سنة (٦٤هـ) كانت كل عوامل النجاح متوافرة له، فقد بويع له بالخلافة في وقت لم يكن فيه للمسلمين خلافة، وهو بذلك خليفة شرعي وليس خارجاً على خليفة، وكانت تلك دعامة قوية له، ثم إن معظم أقطار العالم الإسلامي قد بايعته راضية ومقتنعة به، لماضيه وماضي أسرته، وعلاقته الوثيقة ببيت النبوة.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن (عبد الله بن الزبير رضي الله عنه) أخفق في الحفاظ على دولته لأسباب كثيرة، منها:

١ـ أنه قبع في (مكة)، وهي على قداستها لم تكن تصلح عاصمة سياسية لدولة امتدت حدودها، فكان عليه أن ينتقل إلى قطر غني، يتوسط الدولة (كالعراق) أو (الشام)، ولو فعل ذلك لكان أفضل له ولشد من عزيمة أنصاره؛ لأن كفته كانت ترجح كفة (مروان بن الحكم وابنه عبد الملك) عند كثير من الناس، حتى في (الشام) نفسها، فقد بايعه معظم أهلها.

٢ـ امتناع (بنى هاشم) عن بيعته، فقد رفض أن يبايعه زعماؤهم، مثل: (عبد الله بن عباس) و(محمد بن علي بن أبي طالب)، وكان قاسياً معهم، فلم يعاملهم بما يليق بهم من التقدير والاحترام، مثلما كان يفعل معهم (بنو أمية)، بل تهددهم وسجنهم فلم يرضخوا له، وبايعوا (عبد الملك بن مروان)، كما امتنع عن بيعته (ابن عمر)، فأضعف ذلك كله موقفه.

٣ـ معارضة الخوارج له، بعد أن رفض اعتناق أفكارهم وآرائهم، فانقلبوا ضده.

٤ـ خيانة أهل (العراق)، وعدم إخلاصهم له، فقد تخلى معظمهم عن أخيه (مصعب) عندما التقت جيوشه بجيوش (عبد الملك بن مروان)، وانضموا إليها.

٥ـ إسراف أخيه (مصعب) في سفك الدماء، حتى ليُروى أنه قتل ستة آلاف من أهل (الكوفة) دفعة واحدة، بعد مقتل (المختار بن عبيد الله

الثقفي) سنة (٦٧هـ)؛ مما أوغر صدور قبائلهم على (آل الزبير) فليس ببعيد أن يكون موقفهم في معركته الفاصلة مع (عبد الملك) انتقاماً منه لما صنع بأهلهم.

٦ـ شحه بالمال وعدم سخائه مع أنصاره، في الوقت الذي كان فيه يسخو خصمه (عبد الملك بن مروان) على أنصاره، بل استطاع بالمال استمالة أنصار (ابن الزبير) نفسه إلى صفّه.

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث (٨١ ـ ٨٣هـ):

هي واحدة من أعنف الثورات التي هبت في وجه الدولة الأموية، ولم يكن الدافع إليها خلاف مذهبي مع الدولة، كما هو الحال مع الخوارج والشيعة، وإنما كان دافعها الأساسي الطموح الشخصي الذي لعب برؤوس بعض أبناء القبائل الكبرى، وكان (عبد الرحمن بن الأشعث) زعيم هذه الثورة نموذجاً لها؛ إذ استغل العداء التقليدي والحقد الدفين الذي يكنه العراقيون لبني أمية أسوأ استغلال، وأعلن الثورة عليهم.

وخلاصة القصة أن (الحجاج بن يوسف) والي (العراق) (٧٥ ـ ٩٥هـ) أمَّر (عبد الرحمن بن الأشعث) على جيش كبير سنة (٨٠هـ) أطلق عليه المؤرخون (جيش الطواويس)؛ لضخامته وحسن إعداده، وأمره بالتوجه إلى (سجستان) شرقيّ بلاد فارس؛ لمعاقبة ملكها (رتبيل) الذي نقض المعاهدة التي بينه وبين المسلمين، وفتح حدود بلاده للخارجين على الدولة الأموية، موفِّراً لهم الأمن والحماية، فصبر عليه (الحجاج) على مضض، إلى أن فرغ من أمر الخوارج وقضى على (ابن الزبير)، فأرسل إليه هذا الجيش الهادر لتأديبه والقصاص منه.

وبدلاً من أن يمضي (عبد الرحمن بن الأشعث) لأداء المهمة المكلَّف بها، وقتل ملك كافر متمرد على الدولة، ارتد ثائراً عليها، وشجعه على ذلك استجابة أهل (العراق) للثورة ورغبتهم في التمرد على الدولة، وكانوا أغلبية في الجيش الذي بلغ عدده مائة ألف مقاتل.

وزاد الأمر سوءاً انخداع بعض العلماء من كبار التابعين بدعوة (ابن الأشعث)، فصدَّقوا دعواه بأنه إذا بويع بالخلافة فسيحكم بالعدل، ويعيد حكم الراشدين ويمحو مظالم (بني أمية)، فاستجابوا له، وكان على رأسهم: (عامر الشعبي)، و(سعيد بن جبير) الذي جعله (الحجّاج) أميناً على الأموال التي ينفق منها على الجيش، وكان لموقفهم هذا أثر كبير في تمادي (ابن الأشعث) في الثورة واستجابة الجنود له، وترتَّب على ذلك أعنف ثورة واجهت (عبد الملك بن مروان)، دامت نحو سنتين (٨١ ـ ٨٣هـ)، ودارت بينهما نحو ثمانين موقعة، قتل فيها عشرات الألوف من الرجال، وكان أشهر معركة (دير الجماجم) التي استمرت مائة يوم وانتهت بهزيمة (ابن الأشعث) في شهر جمادى الآخرة سنة (٨٣هـ).

لجأ (ابن الأشعث) بعد هزائمه إلى (رتبيل) ملك (سجستان)، وكان قد عقد معه اتفاقاً على أن يوفر له الحماية إذا هُزِم، لكن (الحجاج) طلب من (رتبيل) أن يسلمه (ابن الأشعث)، فعزم على تسليمه؛ لأنه كان حريصاً على عدم إثارة (الحجاج) أكثر من ذلك، فلما أحس (ابن الأشعث) بنية (رتبيل) على تسليمه، القى بنفسه من فوق القصر الذي كان يقيم به، فمات منتحراً سنة (٨٥هـ).

الفتوحات في عهد عبد الملك بن مروان:

١ـ فتوحات زهير بن قيس البلوي:

تحرّك (زهير) بحيش كبير وزحف على (القيروان) سنة (٦٩هـ)، والتقى على مقربة منها بجيش (كيسلة)، فهزم (البربر) هزيمة ساحقة بعد معركة شديدة وفي اثناء عودته إلى (برقة) للدفاع عنها ـ بعد ما نمى إلى علمه أن البيزنطيين زحفوا عليها في جموع عظيمة ـ تعرض لهجوم بيزنطي مفاجيء، فلقى حتفه هو ومن معه.

٢ـ حسّان بن النعمان ودوره في فتح (شمالي إفريقيا):

وصلت أخبار استشهاد (زهير) ومن معه إلى الخليفة (عبد الملك بن مروان) وهو مشغول بصراعه مع الخوارج والشيعة وآل الزبير، فلم يتمكن من القيام بعمل حاسم إلا بعد أن استقرت له الأوضاع، فأسند قيادة جبهة الشمال الإفريقي إلى (حسان بن النعمان) وأمده بجيش كبير من (مصر) و(الشام) بلغ عدده نحو أربعين ألف جندي.

واستطاع (حسان) بعد جهد جهيد القضاء على الوجود البيزنطي في الشمال الإفريقي، وأن يحطم مدينة (قرطاجنة) أكبر مركز بيزنطي، وأن يبني محلها مدينة (تونس) الحالية، كما قضى على كل مقاومة للبربر، بعد أن حقق نصراً هائلاً على زعيمتهم الكاهنة التي آلت إليها الزعامة بعد مقتل (كسيلة)، ونعم المسلمون بأولى فترات الاستقرار في (المغرب).

ولم يكن (حسان بن النعمان) قائداً عسكرياً عظيماً فحسب، بل كان رجل دولة وتنظيم وإدارة أيضاً، فأنشأ الدواوين، ورتَّب أمور الخراج والجزية، ووطَّد سلطان الحكم الجديد في الثغور والنواحي، وجدد مدينة

(القيروان)، وأنشا بها المسجد الجامع، ووضع سياسات مستقبلية انتهت بأهل الشمال الإفريقي كله إلى اعتناق الإسلام.

عبد الملك وإدارة الدولة:

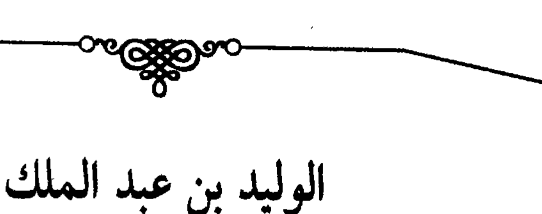
أظهر (عبد الملك) براعة فائقة في إدارة الدولة وتنظيم أجهزتها، مثلما أظهر براعة في إعادة الوحدة إلى الدولة الإسلامية، فاعتمد على أكثر الرجال - في عصره - مهارة ومقدرة، وأعظمهم كفاءة وخبرة، وسياسة وإدارة، ومن أبرزهم (الحجاج بن يوسف الثقفي) الذي عهد إليه (عبد الملك) بإدارة القسم الشرقي للدولة، الذي يتكون من (العراق)، وكل أقاليم الدولة الفارسية القديمة، وكان (الحجاج) عند حسن الظن به، فبذل أقصى طاقته في تثبيت أركان الدولة، والقضاء على كل مناوئيها، وكذلك إخوة (عبد الملك) الذين كانوا من أبرز ركائز دولته، ومنهم (بشر بن مروان)، و(محمد ابن مروان) و(عبد العزيز بن مروان) الذي وليَّ (مصر) نحو عشرين سنة (٦٥ - ٨٥هـ).

وتفقد (عبد الملك) أحوال دولته بنفسه وتابع أحوال عُمَّاله وولاته، وراقب سلوكهم، ولم يسمح لأحد منهم بأن يداهنه أو ينافقه.

وأنجز أعمالاً إدارية ضخمة، دفعت بالدولة الإسلامية أشواطاً على طريق التقدم والحضارة، تمثلت في تعريب دواوين الخراج في الدولة الإسلامية كلها، وتعريب النقود، وتنظيم ديوان البريد، وجعله جهازاً رقابياً، يراقب العمال والولاة ويرفع إليه تقارير عن سير العمل في الولايات.

وتُوفِّي (عبد الملك بن مروان) في شوال سنة (٨٦هـ) بعد أن كرَّس كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة، والسهر على رعاية مصالح المسلمين.





الوليد بن عبد الملك

(٨٦ ـ ٩٦هـ):

هو (الوليد بن عبد الملك بن مروان)، وُلد سنة (٥٠هـ)، وهو أكبر أبناء (عبد الملك)، الذي حرص على تربيتهم تربية إسلامية، فعهد بهم إلى كبار العلماء والصلحاء لتعليمهم وتربيتهم، وخص ابنه (الوليد) بعناية خاصة، لأنه وليّ عهده، وخليفته في حكم الدولة الإسلامية، فشب (الوليد) على الصلاح والتقوى، حافظاً للقرآن، دائم التلاوة له.

تولّى (الوليد) الخلافة بعد وفاة أبيه، الذي ترك له دولة واسعة الثراء، غنية بالموارد، قوية الساعد، مرهوبة الجانب، موحَّدة الأجزاء، متماسكة البناء، موطَّدة الأركان، فاستثمر ذلك على أحسن وجه في الفتوحات الإسلامية، فاستمكل المسلمون في عهده فتح الشمال الإفريقي كله، وفتحوا بلاد (الأندلس) وأتمُّوا في المشرق فتح بلاد (بلاد ما وراء النهر). (آسيا الوسطى) ـ وفتح إقليم (السند) في (شبه القارة الهندية).

وبزر في عهده عدد من القادرة الكبار، منهم من أشرف على فتح تلك البلاد، مثل: (الحجاج بن يوسف الثقفي)، ومنهم من قاد تلك الفتوحات بنفسه، مثل: (قتيبة بن مسلم الباهلي) فاتح بلاد (ما وراء النهر)، و(محمد بن القاسم الثقفي) فاتح (السند)، و(موسى بن نصير) و(طارق بن زياد) فاتحي (الأندلس). كما نهض (مسلمة بن عبد الملك) أخو (الوليد) بمنازلة الدولة البيزنطية، ومواصلة الضغط عليها، والاستعداد لمحاصرة عاصمتها (القسطنطينية).

الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك:

١ـ موسى بن نصير واستكمال فتح الشمال الإفريقي:

حل (موسى بن نصير) سنة (٨٥هـ) محل (حسان بن النعمان) في ولاية شمالي إفريقيا وقيادة جيوش الفتح بها، فأكمل ما بدأه سابقوه من القادة العظام، وقُدِّر له أن يجني ثمار غرسهم، ففي ولايته تم فتح (المغرب) كله، وأقبل أبناؤه على اعتناق الإسلام في حرية تامة، بعدما أدركوا وفهموا ما يحمله من عزة وكرامة وحرية وعدل ومساواة.

٢ـ فتح (الأندلس):

(الأندلس) أو (شبه جزيرة أيبريا) هي الجزء الجنوبي الغربي من قارة (أوربا)، وتشمل في الوقت الحاضر دولتي (إسبانيا) و(البرتغال).

عندما استقر الأمر للمسلمين في (المغرب) في ولاية (موسى بن نصير)، وأقاموا فيها نظاماً عادلاً ورحيماً، كانت (الأندلس) تمرُّ بأسوأ أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية تحت حكم (القوط) الذين استبدوا بالبلاد ونعموا بخيراتها، تاركين سواد الشعب يعاني الفاقة والحرمان، فتطلع أهلها إلى المسلمين ليخلصوهم مما هم فيه من ظلم واستعباد.

وكان الذي دعا المسلمين إلى فتح تلك البلاد هو (يوليان) حاكم ولاية (سبتة) المغربية الواقعة على ساحل البحر، والخاضعة لحكم (القوط) آنذاك، ولم يكن المسلمون قد فتحوها، فاتصل حاكمها (بطارق بن زياد) حاكم (طنجة)، وعرض عليه الفكرة، فنقلها إلى (موسى بن

نصير) الذي اتصل بالخليفة (الوليد بن عبد الملك)، فأذن له الخليفة، على أن يتأكد من صدق نيات (يوليان)، وأن يرتاد البلاد بحملة استطلاعية، ليعرف أخبارها قبل أن يدخلها فاتحاً.

٣ـ حملة (طريف بن مالك) الاستطلاعية:

كلَّف (موسى بن نصير) أحد رجاله وهو (طريف بن مالك) على رأس خمسمائة جندي، بدخول (الأندلس) وجمع ما يمكن جمعه من أخبار، كما طلب من (يوليان) أن يوافيه بتقرير عن أوضاع البلاد، فاتفقت معلومات (طريف) التي جمعها مع تقرير (يوليان)، وكلها تفيد أن البلاد في حالة فوضى، وتعاني من الضعف العسكري، وأن الناس ينتظرون المسلمين ليرفعوا عنهم الظلم، وعاد جيش (طريف) سنة (٩١ هـ) محملاً بالغنائم.

٤ـ طارق بن زياد فاتح (الأندلس):

اختار (موسى بن نصير) للقيام بمهمة فتح (الأندلس) (طارق بن زياد) وهو من أصل بربري لما يتمتع به من شجاعة ومهارة في القيادة، فخرج في سبعة آلاف جندي، معظمهم من (البربر) وعبر المضيق الذي يفصل بين الساحل المغربي والساحل الأندلسي، والذي لا يزال يحمل اسمه، ونزل على الجبل ـ الذي حمل اسمه أيضاً ـ في شهر رجب سنة (٩٢هـ)، واستولى عليه بعد عدة معارك مع القوات القوطية التي كانت تقوم بحراسته، وتوغَّل في جنوبي البلاد.

وما إن علم الملك (روذريق) بنزول المسلمين في بلاده ـ وكان في شمالي غربي البلاد مشغولاً بقمع ثورة اندلعت ضده ـ حتى عاد مسرعاً

للقاء المسلمين على رأس جيش قوامه نحو مائة ألف جندي، ولما علم (طارق) بعودة الملك طلب مدداً من (موسى بصير) فأمدَّه بخمسة آلاف، وأصبح عدد جيشه اثنى عشر ألفاً، والتقى الفريقان في أواخر شهر رمضان سنة (٩٢هـ)، وحقق المسلمين نصراً حاسماً، ويؤكد المؤرخون أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة (شذونة) قد قررت مصير (الأندلس) لصالح المسلمين، لأن الجيش القوطي دُحر تماماً، وهبطت روحه المعنوية إلى الحضيض، ولم يعد قادراً على المقاومة، فانفتح الطريق أمام البطل الفاتح (طارق بن زياد)، ليستولي على مدن مهمة، مثل: (قرطبة)، و(غرناطة)، ووصل إلى (طليطلة) في وسط البلاد، وكانت عاصمة البلاد في ذلك الوقت.

أرسل (طارق) إلى (موسى بن نصير) يبشره بهذه الانتصارات، ويطلب منه مدداً جديداً، فعبر إليه بنفسه على رأس قوة كبيرة قوامها ثمانية عشر ألفاً، ونجح في فتح عدد من المدن في غربي البلاد مثل (إشبيلية) وهو في طريقه إلى لقاء (طارق) في (طليطلة).

اتفق القائدان العظيمان على استكمال فتح (الأندلس) فاتجه كل منهما إلى ناحية فأخذ (طارق بن زياد) طريقه إلى الشمال الشرقي، في حين اتجه (موسى) إلى الشمال الغربي، ونجح الاثنان في غضون عامين (٩٣ ـ ٩٥هـ) في فتح معظم (شبه الجزيرة الأيبرية)، عدا منطقة جبلية في أقصى الشمال الغربي، استعصت عليهم، أو لم يحفلوا بها، ولم يدروا أنها ستكون فيما بعد البؤرة التي ستنمو فيها المقاومة النصرانية.

وقد استمر الإسلام في (الأندلس) زهاء ثمانية قرون، شاد المسلمون خلالها حضارة عظيمة، جعلت منها البقعة الوحيدة المضيئة في القارة

الأوربية كلها، التي كانت تعيش عصوراً مظلمة وتحيا حياة متخلِّفة.

٥ـ فتح بلاد (ما وراء النهر):

أطلق المسلمون اسم بلاد (ما وراء النهر) على البلاد المعروفة الآن باسم (آسيا الوسطى) الإسلامية، وتضم خمس جمهوريات إسلامية، كانت خاضعة للاتحاد السوفييتي، ثم منَّ الله عليهم، فاستقلُّوا بعد انهياره.

وتقع بلاد (ما وراء النهر) بين نهر (جيحون) (أموداريا) في الجنوب، ونهر (سيحون) (سرداريا) في الشمال، وأهلها من أصول تركية، حلُّوا بها منذ القرن السادس الميلادي.

وكانت هذه البلاد تتكون ـ عند الفتح الإسلامي ـ من عدة ممالك مستقلة، وهي:

١ـ مملكة (طخار ستان)، وتقع على ضفتي نهر (جيحون)، وعاصمتها (بلخ).

٢ـ مملكة (الخُتّل)، وهي أول مملكة شمالي نهر (جيحون)، وعاصمتها مدينة (هلبك).

٣ـ مملكة (صغانيان)، وعاصمتها تسمى (صغانيان) أيضاً.

٤ـ مملكة (الصغد)، وعاصمتها مدينة (سمرقند)، ومن أهم مدنها (بخارى).

٥ـ مملكة (خوارزم) وعاصمتها مدينة (الجرجانية).

وكانت تسمَّى هذه بالممالك الجيحونية، بالإضافة إلى عدة ممالك أخرى تقع على ضفتي نهر (سيحون)، سُميت بالممالك السيحونية، وهي

(الشاش)، و(أشروسنة)، و(فرغانة).

وهذه الممالك كلها تم فتحها خلال عشر سنوات (٨٦ ـ ٩٦هـ) في خلافة (الوليد بن عبد الملك)، على يد (قتيبة بن مسلم الباهلي)، وبقوة دفع هائلة من (الحجاج بن يوسف الثقفي) والي (العراق) والمشرق.

قتيبة بن مسلم فاتح (بلاد ما وراء النهر):

طرق المسلمون هذه البلاد عدة مرات منذ خلافة (عثمان بن عفان) رضى الله عنه، وغزاها عدد كبير من القادة المسلمين كان آخرهم (المهلب بن أبي صفرة)، ولم تكن حملاتهم عليها للاستقرار الدائم والفتح المنظم، وإنما كانت لتعرفها ومعرفة أحوالها.

وبدأت المرحلة الحاسمة في الفتح والاستقرار مع تسلم (قتيبة بن مسلم) قيادة جيوش الفتح وولاية إقليم (خراسان) سنة (٨٥هـ)، وكانت الظروف مواتية له تماماً، فالدولة الأموية كانت عندئذٍ في أحسن حالاتها استقراراً وهدوءاً وثراءً، فاجتمع (لقتيبة) مهارة القائد، وعزم الوالي ـ (الحجاج) ـ وتشجيعه، وقوة الدولة وهيبتها، فكانت فتوحاته العظيمة في بلاد (ما وراء النهر).

ولم يكن (قتيبة) قائداً عسكرياً فذاً فحسب، بل كان إلى جانب ذلك رجل دولة، وصانع سياسة، وواضع نظم وإدارة، فعمل بعد تسلمه أمور الولاية على القضاء على الخلافات العصبية التي كانت تعصف بالقبائل العربية في (خراسان)، من جراء التنافس في الولايات، وجمع زعمائهم.

ولم يكتفِ (قتيبة) بتوحيد صفوف القبائل العربية تحت راية الجهاد، بل عمل على كسب ثقة أهل (خراسان) الأصليين، فأحسن إليهم، وقرَّبهم

وتودَّد معهم وعهد إليهم بالوظائف، فاطمأن الجميع إليه، ووثقوا به وبقيادته.

مراحل الفتح:

مرت خطوات (قتيبة) في فتح تلك البلاد التي استمرت نحو عشر سنوات (٨٦ ـ ٩٦هـ) عبر مراحل أربع هي:

ـ المرحلة الأولى (٨٦ ـ ٨٥):

وفيها أخضع (قتيبة بن مسلم) إقليم (طخارستان)، الواقع على ضفتي نهر (جيحون)، ويبدو أن أوضاعه لم تكن قد استقرت للمسلمين تماماً، منذ أن فتحه (الأحنف بن قيس) في خلافة (عثمان بن عفان رضي الله عنه)، وكانت تلك بداية ناجحة، فبدون توطيد أقدامه في (طخارستان) لم يكن ممكناً أن يمضي لفتح (ما وراء النهر)، وأصبح يتمتع بهيبة كبيرة في تلك البلاد؛ فما إن يسمع الملوك بمسيره إليهم، حتى يسرعوا إلى لقائه وطلب الصلح.

ـ المرحلة الثانية (٨٧ ـ ٩٠هـ):

وفيها فتح (قتيبة) إقليم (بخارى)، بعد حروب طاحنة، وانتظام حملاته عليها، وكان الغزو يحدث في الصيف، لأن شتاء تلك البلاد كان قاسياً شديد البرودة على العرب، لكنهم صبروا وجاهدوا حتى تمَّ لهم الفتح.

والحقيقة أن جهل أهل البلاد بالإسلام، وتصورهم أن المسلمين جاءوا للاستيلاء على خيرات بلادهم، هو الذي جعلهم يقاومونهم، لكنهم لما عرفوا أن المسلمين ليسوا غزاة، وإنما هداة يحملون إليهم

الإسلام، أقبلوا على اعتناقه والإيمان بمبادئه.

يقول المستشرق المجري (أرمينوس فامبرى): (إن بخارى التي قاومت العرب في البداية مقاومة عنيفة، قد فتحت لهم أبوابها، لتستقبلهم ومعهم تعاليم نبيهم ﷺ، تلك التعاليم التي قوبلت أول الأمر بمعارضة شديدة، ثم أقبل القوم عليها بعد ذلك في غيرة شديدة، حتى لنرى الإسلام الذي أخذ شأنه يضعف اليوم في جهات آسيا الأخرى، وقد غدا في بخارى اليوم ـ (١٨٧٣م) ـ على الصورة التي كان عليها أيام الخلفاء الراشدين).

ـ المرحلة الثالثة (٩٠ ـ ٩٣هـ):

وفيها أكمل فتح حوض نهر (جيحون) كله، وتوَّج عمله بالاستيلاء على (سمرقند)، أعظم مدائن (ما وراء النهر) كلها.

ـ المرحلة الرابعة (٩٣ ـ ٩٦هـ):

وفيها عبر (قتيبة) نهر (سيحون)، وفتح الممالك السيحونية الثلاث: (الشاش)، و(أشروسنة) و(فرغانة)، ووصل إلى أقليم (كاشغر) الذي يلامس حدود (الصين)، التي تهيأ لفتحها، لولا أن وفاة (الحجاج) سنة (٩٥هـ)، وبعده الخليفة (الوليد بن عبد الملك) سنة (٩٦هـ)، جعلته يتوقف عند هذا الحد، لكنه أجبر ملك (الصين) على دفع الجزية له مع رسوله إليه (هُبيرة بن المشمرج الكلابى).

وقد أصبحت تلك البلاد جزءاً مهماً وعزيزاً من العالم الإسلامي، نشأت فيه مراكز علمية وحضارية، مثل (سمرقند)، و(بخارى)، و(جرجان)، وغيرها، وخرَّجت عدداً هائلاً من علماء المسلمين الذين ملأت أسماؤهم سمع الدنيا وبصرها.

٦ـ فتح (السند):

بدأ (الحجاج بن يوسف الثقفي) يعد العدة لفتح إقليم (السند) في (شبه القارة الهندية)، بعد أن استقام الأمر له في جنوبي بلاد فارس وتوطدت أقدام المسلمين هناك، وقضى على تمرد (رتبيل) ملك (سجستان)، وأخضع بلاده.

ويُعد فتح بلاد (السند) شبيهاً بفتح بلاد (ما وراء النهر) من عدة وجوه، منها:

ـ وحدة الزمان، فقد فتح المسلمون (السند) سنة (٨٩ه).

ـ ووحدة القيادة العامة التي توجه الفتوحات، والتي تمثلت في شخص (الحجاج الثقفي) الذي وقف وراء ابن عمه (محمد بن القاسم الثقفي) كما وقف وراء (قتيبة بن مسلم)، يعضِّد الفتح ويؤازره، ويمده بالرجال والعتاد.

وقد سبق الفتحَ المنظم لبلاد (السند) سلسلةٌ من الحملات والغزوات التي قام بها المسلمون لمعرفة طبيعة البلاد وجمع المعلومات عنها، كما حدث لبلاد (ما وراء النهر)، فقد بدأ المسلمون يطرقوا أبواب هذا الإقليم منذ عهد (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) ويمدنا (البلاذري) بمعلومات إضافية عن حملات المسلمين الأولى قبل حملة (محمد بن القاسم الثقفي) فاتح (السند) (٨٩ ـ ٩٦هـ).

عزم (الحجاج) على فتح إقليم (السند)، بعد أن استقرت أحوال الدولة الأموية، فأسند هذه المهمة إلى (محمد بن القاسم) وكان دون العشرين

من عمره، وجهَّزه بما يكفل له النجاح من عدة وعتاد، وأمدَّه بستة آلاف جندي من أهل الشام، بالإضافة إلى ما كان معه من الجنود، فأصبح تحت قيادته نحو عشرين ألفاً في تقدير بعض المؤرخين.

اتخذ (محمد بن القاسم) من مقاطعة (مهران) في جنوبي (فارس) قاعدة للفتح ونقطة انطلاق، فقسَّم جيشه نصفين، أحدهما برِّي والآخر بحري، ثم تحرك قاصداً مدينة (الديبُل) ـ وهي تقع قريباً من (كراتشي) الحالية في (باكستان) ـ وفتح في طريقه إليها (فنزبول)، و(أرمائيل)، ثم وافته السفن التي كانت تحمل الرجال والعتاد، فحاصر (الديبل) واستولى عليها بعد قتال دام ثلاثة أيام، وترك فيها حامية من أربعة آلاف رجل، وبنى لهم مسجداً.

وكان لفتح المسلمين مدينة (الديبل) أثر كبير في أهل (السند)، فسارعوا يطلبون الصلح فصالحهم (محمد بن القاسم) ورفق بهم، ثم سار إلى (البيرون) ـ (حيدر آباد السند) حالياً ـ فتلقاه أهلها وصالحوه كذلك، وكان لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحاً أو عَنوة، وتوَّج ذلك كله بالانتصار على (داهر) ملك (السند)، ومضى يستكمل فتحه، فاستولى على حصن (راوَدْ)، ثم (برهماناباذ)، و(الرور) و(بهرور)، ثم اجتاز نهر (بياس) وعبر إلى إقليم (الملتان)، فاستولى عليه بعد قتال شديد، وغنم كميات كبيرة من الذهب.

وبينما يواصل (محمد بن القاسم) فتوحاته؛ إذ جاءته الأخبار بوفاة (الحجاج) سنده وعونه في الفتح، فاغتم لذلك غماً شديداً؛ لكنه واصل فتوحاته حتى أتم فتح بلاد (السند)، وجاءته قبائل (الميد) و(الجات) و(الزط) تقرع الأجراس فرحة هاتفة، مرحبة به، لأنهم عدُّوه محررهم من

ظلم الهندوس واستعبادهم.

وفي هذه الأثناء مات الخليفة (الوليد بن عبد الملك) سنة (٩٦هـ)، وتولَّى أخوه (سليمان بن عبد الملك) منصب الخلافة، فعيَّن على (العراق) (صالح بن عبد الرحمن)، وكان واحداً من ألد خصوم (الحجاج)، فقرر الانتقام منه على الرغم من وفاته سنة (٩٥هـ)، في شخص ابن عمه (محمد بن القاسم)، فعزله عن قيادة الجيش، ولم يكتفِ بذلك، بل أمر بالقبض عليه ووضعه في السجن، وظل يعذبه حتى مات.

ومن العجيب أن هذا البطل الذي قتله أهله وعشيرته حزن عليه أهل (السند) الذين فتح بلادهم، لما رأوا في عهده من عدل وسماحة وحرية، وصنعوا له التماثيل كما يروي (البلاذري).

النهضة العمرانية في عهد الوليد:

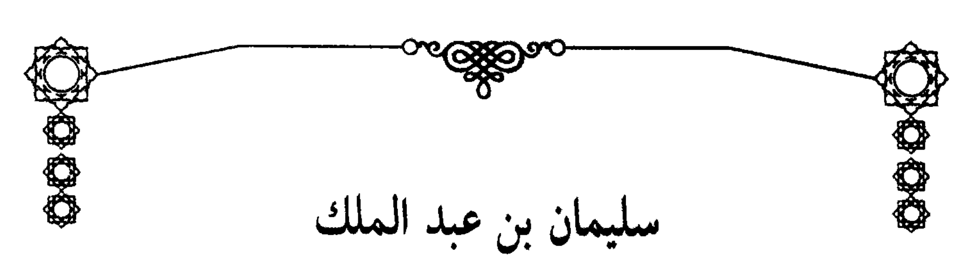
شهد عصر الوليد بن عبد الملك نهضة عمرانية كبرى، فأعاد بناء (المسجد النبوي) وأدخل عليه توسعات كبيرة، وعهد إلى ابن عمه والي (المدينة) (عمر بن عبد العزيز) بمتابعة ذلك، كما بنى (المسجد الأقصى) في مدينة (القدس)، وبنى (مسجد دمشق)، وأنفق عليه كثيراً ليكون آية من آيات العمارة، وعُنى عناية فائقة بتعبيد الطرق التي تربط بين أجزاء الدولة، التي امتدت أطرافها من (الصين) شرقاً إلى (الأندلس) غرباً، ومن (بحر قزوين) شمالاً إلى (المحيط الهندي) جنوباً، وبخاصة الطرق التي تؤدى إلى (مكة المكرمة)، لتسهِّل سفر حجاج بيت الله الحرام.

وفي عهده سبقت الدولة الإسلامية كل دول العالم في تقديم الخدمات للناس مجاناً، وبخاصة الخدمات الطبية لأصحاب الأمراض المزمنة، يقول (الطبرى):

(كان الوليد عند أهل الشام أفضل خلفائهم، بنى المساجد، مسجد دمشق، ومسجد المدينة، ووضع المنابر، وأعطى الناس، وأعطى المجذومين، وقال لا تسألوا الناس، وأعطى كل مُقعَد خادماً، وكل ضرير قائداً، وفُتح في عهده فتوح عظام).

وتُوفِّي الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة سنة (٩٦هـ).

☆☆☆



سليمان بن عبد الملك

(٩٦ ـ ٩٨هـ)

هو (سليمان بن عبد الملك بن مروان)، وُلد في (المدينة)، ونشأ في الشام، وبُويع له بالخلافة في اليوم الذي تُوفِّي فيه أخوه (الوليد بن عبد الملك).

كان (سليمان) من أفضل أولاد (عبد الملك)، ومن أكبر أعوان أخيه (الوليد) أثناء خلافته، وولى له (فلسطين)، وصفه (الذّهبي) بقوله: (من أمثل الخلفاء ـ يعني من أفضلهم ـ نشأ على الجهاد، وكان دَّيناً فصيحاً مفوَّهاً، عادلاً محباً للغزو، استعان في إدارة دولته وتصريف شؤونها بعظماء الرجال وصالحيهم، من أمثال: ابن عمه (عمر بن عبد العزيز)، و(رجاء بن حيوة).

حافظ (سليمان) على هيبة الدولة ومكانتها، فواصل الجهاد والفتوحات، وأرسل جيشاً بقيادة أخيه (مسلمة بن عبد الملك) لحصار (القسطنطينية)، وأشرف بنفسه على هذه الحملة، حيث اتخذ من مدينة (مرج دابق) شمالي الشام مركز قيادة له؛ ليكون على مقربة من ميدان المعارك الحربية.

اهتم الخليفة (سليمان بن عبد الملك) بفتح (القسطنطينية) اهتماماً كبيراً، وجهَّز لذلك جيشاً ضخماً، بلغ زهاء مائة ألف جندي، ومزوداً بنحو ألف وثمانمائة سفينة حربية، وأسند قيادته إلى أخيه (مسلمة بن عبد

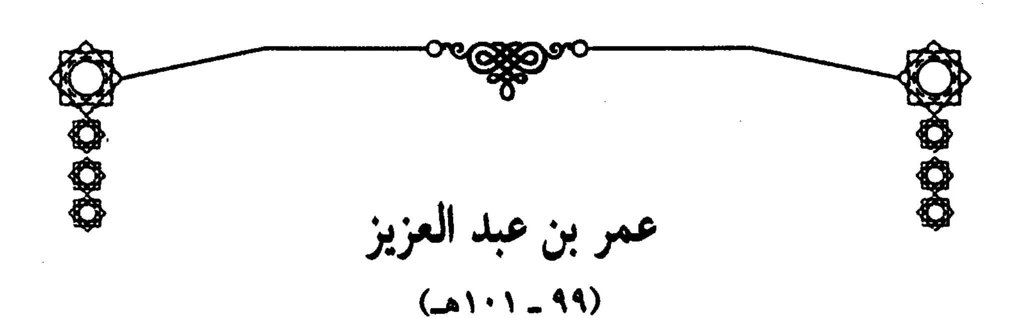
الملك)، واتخذ هو من مدينة (مرج دابق) شمالي الشام مركز قيادة له؛ يتابع منه أخبار الجيش وسير عملياته.

وقد حاصر الجيش المدينة مدة عام كامل (٩٨ ـ ٩٩هـ) دون جدوى، فقد استعصت المدينة على السقوط، على الرغم من الاستعدادات الكبيرة للجيش الإسلامي وتضحياته الجسيمة.

ولم تكن هذه الحملة والحملتان اللتان تمتا في عهد معاوية برغم عجزهم عن فتح (القسطنطينية) بغير فائدة، فقد شغلت الدولة البيزنطية بالدفاع عن نفسها وعن عاصمتها، وجعلت الاستيلاء عليها أملاً إسلامياً لم يخبُ نوره أو تنطفىء جذوته عبر القرون، حتى حقَّقه السلطان العثماني (محمد الفاتح) سنة (٨٥٧هـ = ١٤٥٣م)، وشيد مسجداً بالقرب من قبر (أبى أيوب الأنصارى) أول شهيد إسلامي هناك.

وتُوفِّي (سليمان بن عبد الملك) في (مرج دابق) في شهر صفر سنة (٩٩ هـ)، ولذا قال بعض العلماء: إنه مات شهيداً، بعد أن توَّج أعماله بعمل يدل على صلاحه وحرصه على مصالح المسلمين، وهو تولية ابن عمه (عمر بن عبد العزيز) الخلافة من بعده.





عمر بن عبد العزيز

(٩٩ ـ ١٠١هـ)

هو (عمر بن عبد العزيز بن مروان الحكم)، وأمه (أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه). ولد في (المدينة المنورة) سنة (٢٦هـ) على الأرجح، ونشأ بها بناءً على رغبة أبيه، الذي تولَّى إمارة (مصر) بعد ولادة (عمر) بثلاث سنوات سنة (٦٥هـ)، فنشأ بين أخواله من أسرة (عمر بن الخطاب رضي الله عنه)، ونهل من علم علمائها من بقية الصحابة، وكبار التابعين، حتى صار من كبار الفقهاء علماً وعملاً.

ظل (عمر) في (المدينة) حتى سنة (٨٥هـ)، وهي السنة التي تُوفي فيها أبوه، فاستدعاه عمه (عبد الملك بن مروان) إلى (دمشق)، وخلطه بأبنائه، وزوَّجه ابنته (فاطمة)، ثم عيَّنه والياً على منطقة (خناصرة) شمالي شرقي الشام، ثم عيَّنه ابن عمه (الوليد بن عبد الملك) والياً على (المدينة المنورة)، فكان ذلك مصدر سعادة لعمر ولأهل (المدينة) جميعاً، ونَعِمَ الناس في فترة ولايته عليها (٨٧ ـ ٩٣هـ) بالعدل والأمن، وأشرك معه أهل العلم والفضل منهم في إدارة أمور الولاية.

عمر في خلافته:

أخذ (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) منذ أن وُليَّ الخلافة في بذل كل ما يملك من طاقة، وما يتمتع به من خبرة في إصلاح أمور الدولة، واستقرار الأمن، ونشر الرخاء والعدل، وتحقيق الكفاية والوفرة في كل

أنحائها، والحرص على مال المسلمين، وإنفاقه في وجوهه المشروعة، وحسن التصرف في الأمور، والدقة في اختيار الولاة والقضاة وسائر كبار رجال الدولة، وتحقيق التوازن بين طبقات المجتمع، ومجادلة الخارجين على الدولة بالحسنى، لإقناعهم بالعودة إلى حظيرة الجماعة كما فعل مع (الخوارج) حين عاودوا نشاطهم في عهده فاستعمل معهم أسلوب الحوار، فاستجابوا له لَّما أقنعهم بخطأ أفكارهم المتطرفة، ووعدوه بالهدوء، لكنهم هبُّوا من جديد بعد وفاته سنة (١٠١هـ)، ولم تهدأ ثوراتهم التي استمرت حتى آخر أيام الأموية.

وقد سرت تلك الروح في كل ناحية من نواحي الحياة في الأمة الإسلامية، فعمها الرخاء، وسادت فيها الكفاية والعدالة الاجتماعية، حتى ان عمال الصدقات كانوا يبحثون عن فقراء لإعطائهم فلا يجدون.

سياسته الخارجية:

رأى (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) أن الدولة اتسعت كثيراً، وأن كثيراً من المشاكل والأخطاء نشأت من ذلك الاتساع، فرأى وقف الفتوحات والاهتمام بنشر الإسلام في البلاد التي تم فتحها، وإرسال الدعاة والعلماء لدعوة الناس بدلاً من إرسال الجيوش والحملات، وقد أثمرت تلك الجهود نتائج محمودة، فأقبل أبناء الشعوب المفتوحة على اعتناق الإسلام، يجذبهم إليه سمعة الخليفة الحسنة، وسمو أخلافه، ونبله وعدله، الذي تجاوز حدود دولته إلى غيرها من الدول، فكان موضع إعجاب وتقدير، وحمد وثناء من أهلها، وبخاصة الدولة البيزنطية.

وقد استمرت خلافة (عمر رضي الله عنه) سنتين وبضعة أشهر، شهدت فيها الدولة إصلاحات عظيمة في الداخل والخارج، وامتلأت الأرض نوراً وعدلاً وسماحة ورحمة، وتجدَّد الأمل في النفوس بإمكان عودة حكم الراشدين، واقعاً ملموساً وحقيقة لا خيالاً، وأن يقوِّم المعوج، وينصلح الفاسد، ويُرد المنحرف إلى جادة الصواب، إذ استشعر الحاكم مسؤوليته عن الأمة أمام الله، واستعان بأهل الصلاح من ذوى الكفاءة والقدرة، ومن ثم فليس بغريب أن يطلق على (عمر رضي الله عنه) (خامس الخلفاء الراشدين)، وأن يكون موضع تقدير أشد الفرق عداءً لبني أمية (كالشيعة) و(الخوارج).

وتُوفِّى (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) في أواخر شهر رجب سنة (١٠١هـ).

☆☆☆



يزيد بن عبد الملك

(١٠١ ـ ١٠٥هـ)

هو (يزيد بن عبد الملك بن مروان)، وأمه (عاتكة بنت يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان)، وُلد في (دمشق) سنة (٧١هـ) على وجه التقريب، وبويع له بالخلافة في اليوم الذي تُوفي فيه ابن عمه (عمر بن عبد العزيز) في نهاية شهر رجب (١٠١هـ).

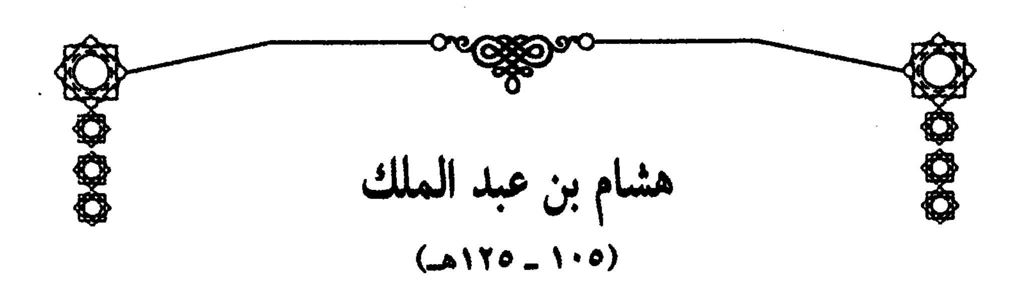
وتدل أخباره قبل تولِّيه الخلافة على أنه كان يحب العلم ومجالسة العلماء، ولديه ميل إلى الاستقامة، وقد حاول بعد توليه الخلافة أن يقتدى بسلفه العظيم (عمر بن عبد العزيز)، لكن قرناء السوء حالوا بينه وبين ذلك، وزيّنوا له حياة اللهو واللعب، ويعبِّر عن ذلك (ابن كثير) بقوله: (فلما وُليَّ ـ (يزيد بن عبد الملك) الخلافة ـ عزم على أن يتأسَّى بسيرة (عمر بن عبد العزيز)، فما تركه قرناء السوء، وحسَّنوا له الظلم).

ولم تكن مناعة (يزيد) ضد الانغماس في حياة اللهو قوية، فاستجاب لقرناء السوء ورفاق اللهو، ولولا أن الدولة الأموية كانت زاخرة بالرجال الأفذاذ، وعامرة بالأبطال من أبناء الأسرة الحاكمة، لانهارت في عصره، فقد عوَّض هؤلاء عدم كفاءة الخليفة لقيادة الدولة، ويأتي في مقدمتهم أخوه: (مسلمة بن عبد الملك) فارس (بني مروان)، وابن أخيه (العباس بن الوليد بن عبد الملك)، وابن عمه (مروان بن محمد بن مروان)، وقد نجح الأولان في القضاء على الثورة العارمة، التي أشعلها (يزيد بن

المهلب) سنة (١٠٢هـ)، أحد أبناء البيوتات العربية الطامحة إلى الخلافة بعد ما نجح في السيطرة على معظم (العراق)، وعرّض الدولة للسقوط، كما تصدّوا لحركات الخوارج وكل مناوئي الدولة، وحافظوا على سلامتها.

ولم تطل خلافة (يزيد) فقد تُوفي في أواخر شهر شعبان سنة (١٠٥هـ).

☆☆☆



هشام بن عبد الملك

(١٠٥ ـ ١٢٥هـ)

هو (هشام بن عبد الملك بن مروان)، رابع أبناء (عبد الملك) الذين ولّوا الخلافة، أمه (أم هاشم بنت إسماعيل المخومى) وُلد في (دمشق) سنة (٧٢هـ)، وبويع له بالخلافة سنة (١٠٥هـ).

ومع أن المصادر التاريخية لم تحدثنا كثيراً عن حياته قبل الخلافة، وعمّا إذا كانت له مشاركة في تسيير أمور الدولة أمَ لا، فإنها تجمع على أنه كان ذا رأي وبصيرة، وحكمه وفطنة، حازماً ذكياً، له بصر بالأمور، جليلها وحقيرها، محشواً عقلاً على حسب تعبير (الطبري).

وكان من حسن الطالع للدولة الأموية وللمسلمين أن يخلف (هشام بن عبد الملك) أخاه (يزيد)، فقد ظل في الخلافة نحو عشرين عاماً، أدار فيها الدولة بكفاءة عالية، وأظهر حكمة سياسية في تعامله مع الكتلتين العربيتين الرئيسيتين في الدولة، وهما عرب الجنوب (اليمن)، وعرب الشمال (قيس)، فلم يتحيز إلى كتلة ضد الأخرى، واحتفظ بعلاقة طيبة معهما ومع الجميع بصفة عامة، ولعل هذه السياسة هي التي كفلت للدولة الاستقرار النسبي طوال حكمه.

وقد تمتع (هشام) بعديد من الصفات اللازمة لرجل الدولة، من حلم وتسامح وسعة صدر، وعدل وحزم، أما أبرز صفاته الإدارية على الإطلاق فهي قدرته الفائقة على تدبير الأموال وحسن التصرف فيها، مع تحري

العدل في جمعها وإنفاقها على حد سواء، فنعمت الدولة في عهده باستقرار مالي كبير.

وأظهر (هشام) كفاءة عالية ومقدرة فائقة في إدارة الشؤون الخارجية للدولة، فحافظ على هيبتها في عيون أعدائها، وبخاصة الدولة البيزنطيه.

ثورة زيد بن علي بن الحسين:

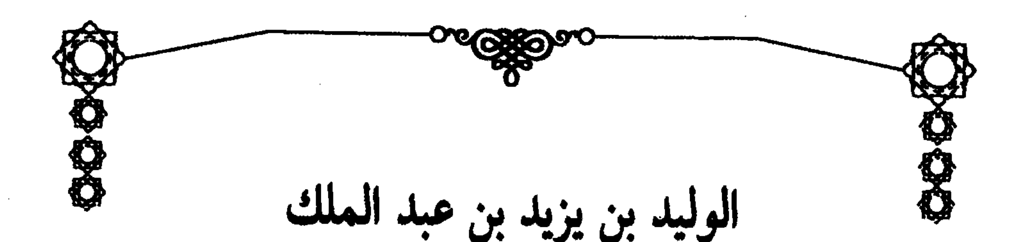
لم يعكر صفو الدولة في عهد (هشام) سوى ثورة (زيد بن علي بن الحسين بن علي) سنة (١٢١هـ)، حين حرّضه العراقيون على الثورة ضد (هشام)، والخروج عليه، ثم تخلَّوا عنه كما فعل أسلافهم مع جده (الحسين بن علي) وكانت قد مضت فترة امتدت إلى أكثر من نصف قرن، منذ مصرع (المختار بن يوسف الثقفي) سنة (٦٧هـ)، دون أن يقوم الشيعة بأية ثورة ضد الدولة الأموية، بسبب الضربات المتلاحقة التي حاقت بهم، وافتقارهم إلى الزعامة القوية التي تقودهم، لأن (علي بن الحسين) ـ وهو الوحيد الذي نجا من مذبحة (كربلاء) ـ كان عازفاً عن الاشتغال بالسياسة، محباً للعلم متفرغاً للعبادة، غير أن ابنه (زيد بن علي) ـ وكان عالماً فاضلاً ـ حدَّثته نفسه بالخلافة، ورأى أنه أهل لها، وعرف أهل (الكوفة) منه ذلك، فزيَّنوا له الثورة على (بني أمية)، وقالوا له: (إنا لنرجو أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية).

تشكك (زيد بن علي) في صدق نيتهم، وقوة عزيمتهم، وقال لهم (إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلتكم بأبي وجدي). لكنه استجاب لهم على الرغم من تحذير أهله وأولاد عمومته من غدر أهل (الكوفة)، انخدع (زيد بن علي) بأهل (الكوفة) وأعلن الثورة على (هشام ابن عبد

الملك) سنة (١٢١هـ)، فتكررت أحداث قصة جده (الحسين)، وأعاد التاريخ نفسه، فلم يتساهل الخليفة (هشام) مع ثورة تريد نقض ملكه والإطاحة بدولته، على الرغم من كراهيته لسفك الدماء، فأمر واليه على (الكوفة) (يوسف بن عمر الثقفي) فتصدَّى (لزيد بن علي) الذي انفض عنه شيعته، وأسلموه إلى عدوه، كما أسلم أسلافهم جدَّه (الحسين)، ولم يبقَ معه في اللحظات الحرجة من بين خمسة عشر ألفاً بايعوه وعاهدوه على النصرة، إلا نحو مائتي رجل، فاستطاع (يوسف بن عمر) أن يقضي بسهولة ويسر على تلك الثورة، وقُتل (زيد بن علي) في صفر سنة (١٢٢هـ). فحزن (هشام) على قتله، لأنه كان يكره سفك الدماء.

وتُوفي (هشام بن عبد الملك) في مطلع شهر ربيع الآخر سنة (١٢٥هـ).

☆☆☆



الوليد بن يزيد بن عبد الملك

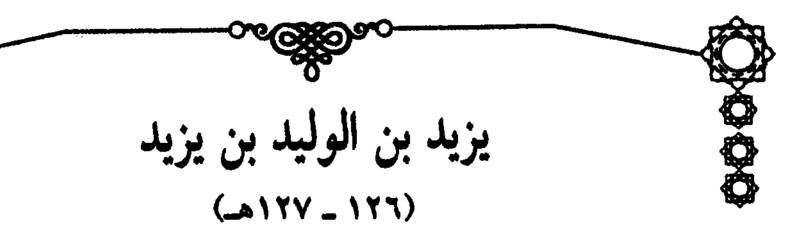
(١٢٥ ـ ١٢٦هـ)

هو أول حفيد من أحفاد(عبد الملك بن مروان) يتولى الخلافة، طبقاً لنظام الوراثة الذي سار عليه الأمويون، إذا عهد (يزيد بن عبد الملك) إلى ابنه بالخلافة بعد أخيه (هشام بن عبد الملك).

وتُعد خلافة (الوليد بن يزيد) بداية النهاية للدولة (الأموية)، وطليعة سقوطها، لأنه كان على شاكلة أبيه لهواً ولعباً، وإذا كان أبوه قد رُزق من يعوض نقص كفائته في الحفاظ على سلامة الدولة، من إخوته وأبناء عمومه من أبناء (الوليد بن عبد الملك) وأخيه(هشام)، وشهد عصره أول انقسام داخلي بين الأسرة الأموية وأشده خطراً.

وقد حاول (الوليد) استرضاء الجند بزيادة رواتبهم، واستعماله الناس بزيادة أعطياتهم من الأموال الكثيرة التي تركها له عمه (هشام بن عبد الملك) في خزانة الدولة، لكن ذلك لم يمنع الثائرين عليه من أبناء عمومه بزعامة (يزيد بن الوليد) من تلطيخ سمعته واتهامه بالفسق والفجور، والمبالغة في تلك التهم والتشهير به لأن (ابن الأثير) يقول: (إن الوليد لم يكن على هذه الدرجة من السوء، غير أن خصومه نجحوا في خطتهم، وقتلوه في جمادى الأخرة سنة(١٢٦ هـ)، فاتحين بذلك أبواب الشر على الدولة من كل جانب، مفَجرين الثورات والفتن في كل مكان.

☆☆☆



يزيد بن الوليد بن يزيد

(١٢٦ ـ ١٢٧هـ)

هو يزيد بن الوليد بن يزيد(١٢٦ـ١٢٧هـ) أول أموي من أم غير عربية يتولّى الخلافة، فأمه فارسية تُدعى (شاه أفريد بنت فيروز بن يزدجرد الثالث) آخر ملوك الفرس.

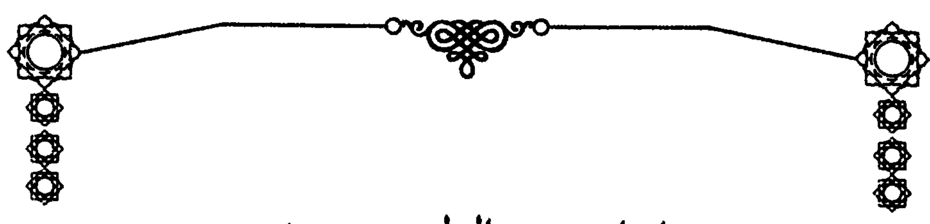
تولّى الخلافة بعد مقتل ابن عمه(الوليد بن يزيد) سنة (١٢٦هـ)، وحاول أن يظهر الصلاح والتقوى، ويتّشبه (بعمر بن عبد العزيز) في عدله وزهده ليمحو من أذهان الناس فعلته الشنعاء بابن عمه، لكنه لم ينجح في ذلك، إذ اضطربت عليه الأمور، ونقم عليه الجند بعد أن أنقص أعطياتهم التي كان قد زادها الخليفة السابق، ولقّبُوه (يزيد الناقص).

وقد اضطربت الدولة في عهده اضطراباً شديداً، وجرَّ عليها بفعلته كوارث لا قِبَل له بها، وشغل أبناء الأسرة الأموية في صراعات داخلية دمويّة، في الوقت الذي كانوا فيه أحوج الناس إلى الوحدة والتضامن إزاء الدعوة (العباسية) التي نشطت استعداداً للانقضاض على الدولة.

وزاد الأمر سوءاً أن (يزيد) عجز عن المحافظة على سياسة التوازن بين القبائل العربية التي انتهجها عمه (هشام بن عبد الملك)؛ فانحاز إلى أهل (اليمن) الذين ساعدوه في الثورة على (الوليد)؛ مما أغضب عرب (قيس)، فثاروا عليه في (الشام) معقل (بني أمية)، ثم أخذ الخلل والاضطراب يسريان في جميع أقاليم الدولة.

وفي ظل هذه الأحداث الهائجة، والأجواء العاصفة تُوفي (يزيد) فجأة في نهاية سنة (١٢٦هـ)، بعد حكم لم يتجاوز ستة أشهر، تاركاً الدولة غارقة في حالة من الفوضى والغليان.





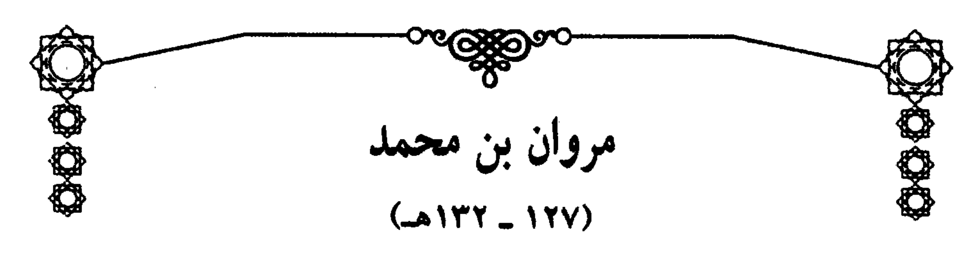
إبراهيم بن الوليد بن يزيد

(١٢٧هـ)

على الرغم من مبايعة بعض الناس لإبراهيم بالخلافة بعد وفاة أخيه (يزيد) الذي كان قد عهد إليه بالخلافة، فإن الأمر لم يتم له، ولم يستطع أن يمسك بزمام الأمور في الدولة التي انفرط عقدها، لذا يقول (الطبري): (كان الناس في جمعة يسلمون على إبراهيم بن الوليد بالخلافة، وفي الأخرى بالإمارة، وفي الثالثة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة)، كما رفضت معظم أقاليم (الشام) بيعته، وحمَّلته هو وأخاه (يزيد) مسؤولية قتل (الوليد بن يزيد) وماترتب على ذلك من فتن وشرور.

وفي هذه الأثناء تحرك (مروان بن محمد بن مروان)، والي (أرمينيا) و(أذربيجان)، لإنقاذ الدولة من السقوط والضياع، بعد أن هاله وأفزعه ما أقدم عليه أبناء عمومه، وقدم إلى (دمشق) على رأس ثمانين ألف جندي، للقضاء على (إبراهيم بن الوليد) الذي هرب، فدخلها في ربيع الآخر سنة (١٢٧هـ)، وبايعه الناس بالخلافة، مؤملين إنقاذ الدولة من الضياع، ولكن كان للأقدار رأي آخر، فقد شاءت أن تكتب في عهده شهادة وفاة تلك الدولة.

☆☆☆



مروان بن محمد

(١٢٧ ـ ١٣٢هـ)

هو آخر خلفاء (بنى أمية)، وليَّ حكم (أرمينيا) و(أذربيجان) منذ خلافة ابن عمه (هشام بن عبد الملك)، وكان من أكفأ الولاة، وأكثرهم خبرة وبصراً بالأمور؛ فارساً شجاعاً، بطلا مقداماً، غيوراً على ملك (بني أمية).

أدرك (مروان) عواقب مقتل (الوليد بن يزيد) على البيت الأموي، فخرج من (أرمينيا) قاصداً (دمشق)؛ ليثأر لمقتل (الوليد)، لكن الخليفة الجديد (يزيد بن الوليد) ترضَّاه، ورجاه أن يرجع، ووعده بإصلاح الأحوال، فرجع مؤمِّلاً أن يفي الخليفة بوعده، غير أن الخليفة تُوفِّي فجاءة، تاركاً الدولة وأحوالها مضطربة، لأخيه (إبراهيم) الذي عجز عن النهوض بأعباء الخلافة؛ مما دفع (مروان) إلى التحرك من جديد، قاصداً (دمشق)، ليجد (إبراهيم) قد غادرها هرباً، فيدخلها، ويبايع له بالخلافة، ليقوم بآخر محاولة لإنقاذ الدولة الأموية، التي شاءت الأقدار أن تكون نهايتها على يديه.

ولا يستطيع أحد أن يلوم (مروان) أو يحمله مسؤولية زوال الدولة، فعوامل سقوطها كانت تتفاعل وتعمل منذ زمن بعيد، وكُتب له أن يجني وحده الثمار المُرة لأخطاء من سبقه على الرغم مما بذله من جهد ومثابرة، وعزم لا يلين، فحارب في أكثر من ميدان، وصارع أحداثاً عدَّة، كانت كلها ضدَّه، وأول خطر واجهه هو انقسام البيت الأموي شيعاً

وأحزاباً، وإشعال أبناء عمومه الثورات العارمة ضده في (الشام) و(العراق)، ثم انقسام القبائل العربية؛ حيث وقفت القبائل (اليمنية) في وجهه، وهم الأنصار التقليديون (لبني أمية)، وانفجار المشكلات في أنحاء الدولة كلها من (الأندلس) حتى بلاد (خراسان) و(ما وراء النهر).

وقد بلغت حركة (الخوارج) أقصى درجات العنف في عهد (مروان بن محمد) (١٢٧ ـ ١٣٢هـ)، وقد شهد آخر (ثورات الخوارج) وأشدها خطراً، بقيادة (الضحاك بن قيس الشيباني) في (العراق)، و(أبي حمزة الخارجي) في جنوبي الجزيرة العربية.

وفي الوقت الذي يواجه فيه (مروان) كل هذه الظروف الصعبة، متنقلاً من ميدان إلى ميدان، ومن جبهة إلى أخرى دون كلل أو ملل، محاولاً إنقاذ الدولة، وبث روح الحياة فيها، وتجديد الدماء في أوصالها ـ تفاجئه رايات العباسيين منحدرة من (خراسان) كالسيل المنهمر، مكتسحة كل قواته في طريقها، ولم تتوقف إلا بهزيمته وهو على رأس جيوشه في معركة على (نهر الزاب) (بالعراق)، في شهر جمادى الآخرة سنة (١٣٢هـ).

ولم يجد (مروان) طريقاً سوى الهرب إلى (مصر)، غير أن العباسيين لاحقوه إلى هناك، واستطاع (صالح بن علي بن عبد الله بن عباس)، عم أول خليفة عباسي أن يقتله في قرية تُسمَّى (زاوية المصلوب) التابعة لبوصير الواقعة جنوبي (الجيزة) في ذي الحجة سنة (١٣٢هـ).

☆☆☆

سقوط الدولة الأموية

إن من يقرأ تاريخ الدولة الأموية منذ قيامها، ويدرس فتوحاتها ونظمها الإدارية، ومساهماتها الحضارية، وكفاءة خلفائها وولاتها، ربما لا يتوقع النهاية السريعة والسقوط المدوي لها، وبالفعل يُعد سقوطها وانهيار بنيانها الشامخ من الأمور العجيبة في التاريخ البشري، غير أن ذلك العجب والدهشة يزولان، بعد دراسة العوامل والأسباب التي تفاعلت وعملت على تحقيق ذلك السقوط، وهي تتلخص في الآتى:

- أولاً: ثورات (الشيعة) المتتالية ضد الدولة، بدءاً من ثورة (الحسين بن علي بن أبي طالب) ضد (يزيد بن معاوية) واستشهاده في (كربلاء) في المحرم سنة (٦١هـ)، ونهاية بثورة (زيد بن علي بن الحسين) سنة (١٢١هـ) ضد (هشام بن عبد الملك).

وربما لا تكون ثورات الشيعة ذات أثر عسكري في الدولة الأموية، باستثناء حركة (المختار الثقفي)، لكن أثرها كان بعيد المدى في نفوس الناس، وشحنها بالعداء لبني أمية، وهذا ما استفاده دعاة العباسيين في مرحلة التحضير لثورتهم.

ثانياً: ثورات (الخوارج) وهذه كانت من العنف والقوة بحيث أسهمت إسهاماً واضحاً في إضعاف الدولة الأموية، فلم تتركها تستريح، وظلت تنفجر في أماكن كثيرة، وبخاصة في (العراق) والجزيرة العربية حتى آخر لحظة في حياة الدولة، فقد سبق القول: إن الخوارج شغلوا آخر خليفة أموي، وهو (مروان بن محمد) بثوراتهم العنيفة عن التنبّه للخطر الداهم الذي زحف عليه من (خراسان)، بقيادة (أبي مسلم الخراساني).

- ثالثاً: العصبيات العربية التي احتدمت بين القبائل، وبخاصة بين

عرب الجنوب (اليمن)وعرب الشمال (قيس)، وكانت تلك العصبيات قد خبت وكمنت بفضل تعاليم الإسلام التي أعلت من رابطة العقيدة، وجعلت التقوى والعمل الصالح ميزان التفاضل بين الناس لا أنسابهم أو أجناسهم.

ثم بدأت تطل برأسها في عهد (عثمان بن عفان رضي الله عنه)، وكانت من أسباب الفتنة التي راح ضحيتها الخليفة نفسه، واستمرت في خلافة (علي بن أبي طالب رضي الله عنه)، وكان لها أسوأ الأثر في إفساد الأمر عليه، فزعماء القبائل اليمنية الذين معه مثل (الأشتر النخعي) و(الأشعث بن قيس) كانوا يتصرفون من منطلق قبلي، وأعلوا عصبيتهم فوق مصلحة الإمام (علي رضي الله عنه) بل فوق مصلحة الإسلام نفسه.

فلما قامت الدولة الأموية استطاع(معاوية) بمهارته السياسية الفائقة أن يتعامل مع هذه العصبية القبلية بتوازن شديد؛ فاحتفظ بصداقة الجميع وطاعتهم، وكذلك فعل (عبد الملك بن مروان) وأولاده حتى (هشام بن عبد الملك) (١٠٥ ـ ١٢٥هـ)، ثم انفجرت العصبيات القبلية، وفتحت فاها كألسنة النيران، دون أن يستطيع أحد أن يوقفها أو يسد فاها، لأن خلفاء (الأمويين) الأواخر لم يكونوا أهلاً للقيادة فعجزوا عن التصدِّى لها، وزاد الأمر خطراً أن تلك العصبيات انفجرت في (الشام)، الحصن الحصين (للدولة الأموية)، فانقلبت عليهم القبائل (اليمينة)، الحليف التقليدي لهم، بسبب تقلب سياسة الخلفاء وتذبذبها من الاعتماد على (اليمنية) تارة وعلى (القيسيين) تارة أخرى.

والأخطر من ذلك أن العرب حملوا خلافاتهم وعصبياتهم في كل أرض يحلّون بها، وبخاصة (خراسان) التي أصبحت التربة الخصبة للدعوة العباسية، بل ان بعض الولاة أسهموا في تفاقم نار العصبية والعمل على إشعالها؛ بسوء سياستهم وضيق أفقهم، فكان إذا جاء والٍ من (اليمن)،

تعصَّب لقومه وخصَّهم بالمزايا والوظائف واضطهد (القيسيين)، وإذا جاء والٍ من (قيس) فعل عكس ذلك.

وهكذا كانت الأحوال في (خراسان) تنتقل من سيء إلى أسوأ؛ مما ساعد الدعاة العباسيين على إلحاق كل ذلك بخلفاء (الأمويين)، وقد استغل ذلك (أبو مسلم الخراساني) واستثمره لمصلحة العباسيين.

ـ رابعاً: **الموالي وبخاصة الفرس**، فقد بغض هؤلاء الدولة الأموية، ومضوا في طريق العداء لها، فلم يتركوا ثورة أو فتنة ضدها إلا انضموا إليها واشتركوا فيها، مهما تكن هوية القائمين عليها، من شيعة إلى خوارج، إلى ثورة (ابن الأشعث) إلى ثورة (ابن المهلب)، حتى جاءتهم الدعوة (العباسية)، فانخرطوا فيها، وكانت على أيديهم نهاية الدولة الأموية.

ـ خامساً: **الخلفاء الأمويون المتأخرون**: أسهم هؤلاء بدءاً من خلافة (الوليد بن يزيد) (١٢٥ ـ ١٢٦هـ) في سقوط الدولة وسهَّلوا لكل خصومهم مهمتهم للانقضاض على الدولة، وذلك لعدم كفاءتهم لقيادة دولة عملاقة كالدولة الأموية من ناحية، ولتناحرهم فيما بينهم على الحكم والسلطان من ناحية أخرى.

وكل هذه العوامل السابقة لو وجدت رجالاً من طراز (معاوية بن أبى سفيان) أو (عبد الملك بن مروان) لكان من الممكن التغلب والسيطرة عليها، لكن هؤلاء تركوا الدولة تتعرض لأشد المخاطر، وتفرغوا لمحاربة بعضهم بعضاً، حتى جاء من قضى عليهم جميعاً.

ـ سادساً: **الدعوة العباسية**: بدأت الدعوة العباسية عملها منذ نهاية

القرن الأول الهجري، في خلافة (سليمان بن عبد الملك) عندما انتقلت الدعوة الشيعية من (عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب) المكنى بأبي هاشم إلى (علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب)، الذي كان يعيش في قرية (الحميمة) جنوبي (الشام)، حين أسرَّ إليه (أبو هاشم) بأسرار الدعوة وأسماء رجالها.

وقد أظهر (العباسيون) منذ أن تولى (علي بن عبد الله بن العباس) أمر الدعوة، ومن جاء بعده من أبنائه حصافة سياسية ودهاء منقطع النظير، فقد أدركوا أن أهم أسباب فشل (العلويين) في الوصول إلى الخلافة هو التسرع والاعتماد على حب الناس لهم، وعواطفهم نحوهم، دون عمل منظم، فحاولوا تفادي تلك الأخطاء، وصاغوا شعاراً خادعاً لدعوتهم، هو الدعوة للرضا من (آل محمد)، فاقتنع كثير من الشيعة أن المقصود هو الدعوة لواحد من أولاد (عليٍّ) أحفاد النبي ﷺ، مع أن الشعار يتسع ليشمل العباسيين أيضاً، فهم من (آل محمد).

ثم ظهرت عبقرية أئمة الدعوة من العباسيين وهم (علي بن عبد الله)، وابنه (محمد) وأولاده في اختيار الدعاة بدقة بليغة، من ذوي الفصاحة والبلاغه والقدرة الفائقة على مخاطبة الناس بما يناسبهم، ومن المخلصين للدعوة ورجالها، المتفانين في سبيلها، حتى ان الواحد منهم إذا أُلْقِيَ القبض عليه، وحقق معه الولاة الأمويون يفضل الموت، ولا يبوح بكلمة واحدة عن الدعوة ورجالها.

وكما تجلت عبقرية الأئمة في اختيار دعاتهم تجلت أيضاً في اختيار المكان الذي ستنطلق منه الثورة المسلحة؛ لتكتسح الدولة (الأموية)، وهو (خراسان) حيث العداء الدفين (للأمويين)، والعصبية العربية المحتدمة،

وانطلقوا يزرعون العداء، ويبثون الدعايات المغرضة ضد (بني أمية)، فيضخمون الأخطاء اليسيرة، وأحياناً يختلقون الأخطاء وينسبونها إلى الخلفاء الأمويين كاختلاقهم أن (الوليد بن يزيد) حاول شرب الخمر فوق (الكعبة)، وكانوا يقومون بذلك وهم على هيئة تجار عاديين، وفي اسلوب هادىء، حتى تحولت مشاعر الناس ضد الدولة الأموية ورجالها. واستمر هذا العمل الدؤوب نحو ثلث قرن (٩٩ ـ ١٢٩هـ)، وكان يجري عبر محور (الحميمة) الرئيسي حيث مقر أئمة الدعوة، وتخرج منها التعليمات إلى (الكوفة)، ومنها إلى (خراسان).

ولما حانت ساعة العمل العسكري، عهد الأئمة بهذه المهمة إلى (أبي مسلم الخراساني)، وكان مسموع الكلمة عند (الخراسانيين)، فأعلن الثورة المسلحة على الأمويين في (خراسان) سنة (١٢٩هـ)، وزحف بقواته إلى الغرب مكتسحاً قوات الأمويين حتى إذا وصل إلى (العراق)، أوقفه (العباسيون)، وأسندوا القيادة إلى (قحطبة الطائي)، وهو قائد عربي، ولم يشاءوا أن يقتحم (أبو مسلم) بقواته (العراق)، حتى لا يثيروا مشاعر العرب ضدهم، وهذا من براعة الأئمة العباسيين في القيادة وفهمهم لنفوس الشعوب.

واصل (قحطبة) عمله ضد قوات (الأمويين) في (العراق) حتى قُتل، فخلفه ابنه (الحسن بن قحطبة)، واستطاع أن يستولي على معظم (العراق).

حدث ذلك كله والخليفة الأموي (مروان بن محمد) مشغول من رأسه إلى قدميه في مشكلات (العراق) و(الشام)، وفي إخماد الثورات التي أشعلها ضده أبناء عمومه، فضلاً عن ثورات الخوارج وقبل أن ينتهي من

ذلك كله داهمته قوات (العباسيين)، وألحقت به هزيمة ساحقة على يد (عبد الله بن علي بن عباس) في موقعة (الزاب) شمالي (العراق) في شهر جمادى الأولى سنة (١٣٢هـ)؛ وهناك لاحقته الجيوش العباسية حتى قُتِل على يد (صالح بن علي بن عبد الله بن عباس) في ذي الحجة سنة (١٣٢هـ).

وبمقتله انتهت الدولة الأموية في المشرق، وقامت الدولة العباسية، حيث بويع (عبد الله بن محمد) الملقَّب بأبي العباس السفاح بالخلافة في (الكوفة) مع ربيع الأول سنة (١٣٢هـ)، قبل مقتل (مروان بن محمد) بشهور.

وسبحان الله القائل:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾[آل عمران: ٢٦]

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾. [البقرة: ٢٦].

☆☆☆

القِسمُ الثّاني

موجز عن الدولة الأموية



موجز عن الدولة الأموية

قامت الخلافة الأموية رسمياً في شهر ربيع الأول من سنة (٤١هـ)، بعد أن تنازل (الحسن بن علي بن أبي طالب) ـ رضى الله عنه ـ عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ـ رضى الله عنه ـ وبايعه هو وأخوه (الحسين)، وتبعهما الناس في (الكوفة)، وأصبح بذلك (معاوية) خليفة للمسلمين وحده، ولُقِّب بأمير المؤمنين، وكان قبل ذلك يلقَّب بالأمير فقط. واستبشر المسلمون خيراً بهذا التطور، وحمدوا الله ـ تعالى ـ على انتهاء الفتن والحروب، وسمُّوا ذلك العام عام الجماعة؛ حيث عادت إلى الأمة الإسلامية وحدتها، واجتمع شملها على خليفه واحد، بعد الفرقة والنزاع، ولقي ما فعله (الحسن بن علي) كل تقدير وإجلال من جمهور المسلمين، وأثنىٰ عليه كثير من العلماء، ورأوا فيما أقدم عليه تحقيقاً لنبوءة جده (محمد ﷺ) حين قال: (إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)[1].

تطور نظام الخلافة في العصر الأموي:

عرفنا فيما سبق (راجع كتاب الوجيز في الخلافة الراشدة) كيف قامت الخلافة الإسلامية عقب وفاة الرسول ﷺ وكيف كان يتم اختيار الخليفة في دولة الراشدين بالبيعة المباشرة من المسلمين لخليفتهم، بعد أن يرشحه عدد من «الصحابة»، كما حدث في خلافة الصديق، حيث بايعه عدد من الصحابة في (سقيفة بنى ساعدة) بيعة خاصة، كانت بمثابة ترشيح له لمنصب الخلافة، ثم جاءت البيعة العامة له في مسجد الرسول ﷺ ـ

(١) رواه البخاري برقم ٢٧٠٤ كتاب الصلح. باب قول النبي للحسن بن علي ابني هذا سيد ولعل الله ورواه أيضاً البخاري برقم٣٦٢٩ كتاب: المناقب. باب: علامات النبوة في الإسلام.

بعد مواراة جسده الطاهر تحت الثرى ـ لتُزكِّي ذلك الترشيح وتوافق عليه، ومن ثم أصبح (أبو بكر الصديق رضى الله عنه) أول خليفة لرسول الله ﷺ في حكم الدولة الإسلامية، باختيار حُر من المسلمين.

وعندما مرض (أبو بكر) ـ رضى الله عنه ـ مرض الموت قال للمسلمين: (إنه قد نزل بى ما ترون ـ يعنى المرض الشديد ـ ولا أظنني إلا ميِّتاً لما بي من المرض، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلَّ عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمِّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمَّرتم في حياة منِّي كان أجدر ألا تختلفوا بعدي). وتصرُّف (أبي بكر الصديق رضى الله عنه) دليل ساطع وبرهان قوي على أن اختيار الحاكم من حق الأمة وحدها، لكن الصحابة فوَّضوه في اختيار خلف له، وألَّحوا عليه في ذلك، فقبل تكليفهم، ووقع اختياره على (عمر بن الخطاب) ـ رضى الله عنه ـ لكفاءته وقدرته وسابقته في الإسلام، ولم يكتفِ (الصديق) باختياره هو لعمر بن لخطاب، بل استطلع آراء كبار الصحابة حول مرشحه، مع أنه مفوض من الصحابة في اختيار خليفة لهم، ويعلم بأن (عمر رضى الله عنه) هو أفضل الصحابة بعده، وأصلحهم لتولِّي الخلافة، لكنه آثر ألا ينفرد وحده باختيار خليفه له. ولما اطمأنت نفسه إلى أن الغالبية ممن شاورهم تؤيد اختيار (عمر رضى الله عنه)، جمع الناس حوله، وحدَّثهم قائلاً: (أترضون بمن أستخلف عليكم، فإني والله ما آلوت من جهد الرأي، ولا ولَّيت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عليكم «عمر بن الخطاب رضى الله عنه»، فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وأطعنا). ولم تنعقد بيعة (عمر رضى الله عنه) ليصبح خليفة إلا بعد وفاة أبي بكر رضى الله عنه)، وبمبايعة الناس له بيعة عامة، ولو لم يرضَ

الناس بترشيح (أبي بكر رضى الله عنه)، ورفضوا مبايعة (عمر رضى الله عنه)، ما كان لعهد (أبي بكر الصديق) عليهم حجة أو سلطان. وجاء اختيار (عثمان بن عفان) ـ رضى الله عنه ـ ببيعة عامة حرّة من بين الستة الذين رشحهم (عمر بن الخطاب) ـ رضى الله عنه ـ ليختاروا واحداً منهم، وقد حصرها فيهم؛ لأنهم بقية العشرة المبشرين بالجنة، والذين تُوفِّى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ. ولما قُتل (عثمان بن عفان رضى الله عنه) شهيداً، ألَّح الصحابة على (عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه) أن يقبل الخلافة، بعد أن سادت الفوضى مدينة رسول الله ﷺ، وامتنع كبار الصحابة عن قبول الخلافة، فقبل عليّ الخلافة؛ لينقذ الأمة من الفتن، وبايعه معظمهم، ولا جدال في أن قيام عليّ بالأمر في ذلك الوقت العصيب كان تضحية تنطوي على شجاعة حيث تحمل المسؤولية في أصعب الظروف وأدقها. وكان متوقعاً أن تنهي بيعته بالخلافة حالة الفوضى التي سادت البلاد بعد مقتل (عثمان رضى الله عنه)، لكن الأحداث تطورت سريعاً من سيىء إلى أسوأ، وانتهى به الحال أن قُتل شهيداً، وقبل وفاته استشاره أصحابه في بيعة ابنه (الحسن) بعده، فقال لهم: (لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر)، لكنهم بايعوا (الحسن)، الذي تنازل عن الخلافة لمعاوية كما ذكرنا.

وخلاصة ما سبق أن طريقة اختيار الخليفة في عهد الراشدين كانت تتم ببيعة حرة وعامة بعد ترشيح شخص أو أكثر، وأن ترشيح الخليفة السابق لم يكن ملزماً للأمة، بل لها أن توافق أو تعترض، وهذا هو نظام الشورى في الإسلام الذي يشبه في مصطلحات العصر الحديث النظام الديمقراطي.

ولم يفكر أي واحد من الخلفاء الراشدين في أن يعهد بالأمر إلى أحد من أبنائه أو أقربائه، حرصاً منهم على إبعاد فكرة الوراثة عن نظام الحكم الإسلامي إبعاداً تاماً، وقد وضَّح (أبي بكر الصديق رضى الله عنه) هذا المعنى عندما رشَّح (عمر رضى الله عنه) في قوله: (أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فأني والله ما آلوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة)، كما استبعد (عمر بن الخطاب رضى الله عنه) ابنه (عبد الله) تماماً من الترشيح، بل استبعد ابن عمه (سعيد بن زيد رضى الله عنه) أيضاً من الترشيح مع أهل الشورى؛ دفعاً لشبهة القرابة مع أن الشروط تنطبق عليه.

ولم يُؤثَر عن (عثمان رضى الله عنه) شيء من ذلك، وترك (علي بن أبي طالب رضى الله عنه) الأمر للأمة لاختيار من ترضاه، ورفض ترشيح ابنه (الحسن) للخلافة أو الوصاية له بالبيعة.

أسلوب اختيار الخليفة الأموي:

لم يكن أحد يظن أن بيعة المسلمين لمعاوية بن أبي سفيان ستكون إيذاناً بتأسيس دولة أموية وراثية وكان المسلمون قد استبشروا خيراً بهذه البيعة بعد فترة من الفتن والحروب، حتى إن بعض الصحابة الذين كانوا قد توقفوا عن بيعة (علي) ـ رضى الله عنه ـ بايعوا (معاوية رضى الله عنه)، دعماً لوحدة الأمة ولَمِّ شملها، مثل: (سعد بن أبى وقاص) و(عبد الله بن عمر) رضى الله عنهما.

وربما توقَّع الناس أن (معاوية رضى الله عنه) سيحذو حذو من سبقه من الخلفاء الراشدين ويترك الأمر شورى للمسلمين، يختارون للخلافة من بعده من يرونه أهلاً لتولي تبعات هذا المنصب الجليل، أو سيجتهد

في اختيار شخص يراه أصلح الناس لتولِّي منصب الخلافة، ويكون بعيداً عن قرابته كما فعل الخلفاء قبله، لكن (معاوية رضى الله عنه) فاجأ الأمة الإسلامية بترشيح ابنه (يزيد) للخلافة من بعده، وبدأ في أخذ البيعة له في حياته، بدعم من أهل الشام، ولما نجح في ذلك لم يكن صعباً عليه أن ينتزع البيعة لابنه من بقية الأقطار الإسلامية، بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى.

ولم يعارض (معاوية رضى الله عنه) في خطواته هذه سوى أهل (الحجاز)، الذين رأوا في عمله خروجاً على ما ألفه المسلمون في اختيار خليفتهم ببيعة حرة قائمة على الشورى، وتركزت المعارضة في ثلاثة من أبناء كبار الصحابة، هم (الحسين بن علي بن أبي طالب)، و(عبد الله بن الزبير)، و(عبد الله بن عمر) رضى الله عنهم.

وقد تطورت معارضة الأوَّلين إلى خروج (الحسين) على (يزيد) بعد موت (معاوية)، واستشهاده في موقعة (كربلاء) المشهورة سنة (٦١هـ)، وإلى عودة (عبد الله بن الزبير) بالخلافة لنفسه بعد موت (يزيد بن معاوية) سنة (٦٤هـ)، ثم دخوله في صراع مع الأمويين، انتهى بمقتله سنة (٧٣هـ)، بعد أن دامت خلافته تسع سنوات، أمَّا (عبد الله بن عمر)، فقد بايع (يزيد) حفاظاً على وحدة المسلمين، بعد أن رأى أن استمراره في معارضته لن يكون في مصلحة الأمة الإسلامية. وقد دافع عن عمل (معاوية) كثير من المؤرخين، ورأوا في صنيعه عملاً ضرورياً للحفاظ على وحدة الأمة، واجتناب العودة إلى الحروب الأهلية، ويقف على رأس هذا الفريق المؤرخ الكبير (عبد الرحمن بن خلدون) مؤيِّداً إقدام (معاوية) على هذه الخطوة بقوله: (والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه

إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم، باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بني أمية؛ إذ «بنو أمية» يومئذٍ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش - أى أكثرهم قوة - وأهل الحل أجمع، وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول؛ حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء، الذي شأنه أهم عند الشارع، لا يظن بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عليه، دليلٌ على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك وعدالتهم مانعة).

ويدعم (ابن خلدون) رأيه هذا بأن ولاية العهد من الخليفة القائم إلى شخص يتولى الخلافة بعده أمر جائز لا حرج فيه، فيقول: (قد عُرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده، إذ وقع من أبى بكر - رضى الله عنه - لعمر بن الخطاب رضى الله عنه بمحضر من الصحابة، وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضى الله عنه وعنهم).

وما قاله (ابن خلدون) يمكن الرد عليه بأن (أبا بكر رضى الله عنه) عهد إلى (عمر رضى الله عنه)، لأنه رآه أصلح الصحابة لتولي الخلافة بعده وتحّمل تبعاتها، وقد كان كذلك بالفعل، ولم تكن تربطه به صلة قرابة قريبة، وقد أوضح ذلك بقوله: (أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فإني والله ما آلوت من جهد الرأي، ولا ولَّيت ذا قرابة)، كما أن (عمر رضى الله عنه) لم يصبح خليفة بترشيح (أبى بكر الصديق) واختياره له فحسب، بل برضى المسلمين وبيعتهم له.

ولو أن (معاوية) عهد إلى أحدٍ غير ابنه، واجتهد في اختيار من هم

أصلح للخلافة بعده، ما اعترض عليه أحد، ولحقَّق الغرض الذي قصده (ابن خلدون) من ولاية العهد، وهو سد أبواب الخلاف بين المسلمين، ومن ثم فإن الاعتراضات على تصرف (معاوية) جاءت من اختياره ابنه لولاية العهد دون سواه، لا من فكرة ولاية العهد نفسها.

وأياً ما كان الأمر فإن الخلافة حُصِرت في الأسرة «الأموية»، يتوارثها الأبناء والإخوة، ولم يكتفِ الخليفة منهم بتولية العهد لواحد فقط، بل درجوا على تولية أكثر من ولي للعهد، وكان (مروان بن الحكم) مؤسس الفرع المرواني أول من بدأ هذا التقليد، فقد عهد إلى ابنه (عبد الملك) ثم (عبد العزيز) بولاية العهد، وقد تابعه في هذا كل من جاء بعده حتى آخر دولتهم، وقد جرَّ هذا الأمر عليهم المتاعب، وأوقد نار الفتنة والصراع بين أبناء الأسرة الأموية، مما كان له أكبر الأثر في تدهور الدولة والإسراع بسقوطها في نهاية الأمر.

وعلى الرغم من استقرار الخلافة بنظام التوريث فإن الأمويين حافظوا على نظام البيعة من حيث الشكل فكان الخليفة القائم يعهد إلى من بعده بولاية الأمر إلى ابنه أو أخيه، ثم تؤخذ البيعة من الناس لمن صدر له كتاب العهد في حياة الخليفة القائم، ثم تجدد له بعد وفاته، ومغزى هذا أنهم كانوا على يقين أن مجرد العهد ليس ملزماً شرعاً للناس، بل لابد من البيعة العامة.

الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي:

شهد العصر الأموي أوسع حركات الفتح الإسلامي وأكثرها نشاطاً في التاريخ الإسلامي كله بعد فتوحات الخلفاء الراشدين، التي شملت العراق

وبلاد فارس كلها، ومصر والشام، ثم توقفت الفتوحات الإسلامية، أو كادت تتوقف بسبب الفتن والحروب الأهلية التي حدثت بين المسلمين.

وقد استأنف المسلمون فتوحاتهم بعد اجتماع شملهم على (معاوية بن أبي سفيان) وتوحدهم تحت رايته في عام الجماعة سنة (٤١ هـ).

وحقق الأمويون أعظم إنجازاتهم على الإطلاق في ذلك الميدان العظيم، وامتدت فتوحاتهم إلى مناطق عديدة في قارات العالم القديم (آسيا ـ إفريقيا ـ أوربا) ففتحوا في عهد (الوليد بن عبد الملك) بلاد (ما وراء النهر) (آسيا الوسطى) وإقليم (السند) في (شبه القارة الهندية)، واستكملوا فتح (الشمال الإفريقي) كله من حدود (مصر) الغربية إلى (المحيط الأطلسي)، ثم عبروا (مضيق جبل طارق) إلى القارة الأوربية، ليفتحوا (الأندلس)، و(جنوبى فرنسا)، كما استولوا على معظم الجزر في (شرقى البحر المتوسط) وشرقيه وجنوبيه، ثم واصلوا ضغطهم على مدينة (القسطنطينية)، عاصمة الدولة البيزنطية، وحاصروها أكثر من مرَّة.

التيارات والأحزاب السياسية والدينية:

شغلت الدولة الأموية في التاريخ الإسلامي إحدى وتسعين سنة (٤١ـ ١٣٢هـ)، وامتدت حدودها من حدود (الصين) شرقاً إلى (الأندلس) غرباً، ومن بحر (قزوين) شمالاً إلى (المحيط الهندى) جنوباً، وعمل خلفاؤها في جد ومثابرة وحسن سياسة على نشر الإسلام في تلك الرقعة الكبيرة، ونمت الحضارة الإسلامية ونهضت في عهدهم.

وهذه الأعمال تشهد للأمويين بدورهم البارز في التاريخ الإسلامي، وتخفف كثيراً من النقد الذي وجُه إليهم، ومما يزيد المرء إعجاباً وتقديراً

لإنجازهم أنهم قاموا بتلك الأعمال الجليلة، وهم يصارعون أعداء أشداء من تيارات وأحزاب سياسية ودينية، لم يتركوا فرصة للثورة عليهم إلا انتهزوها.

من تلك الأحزاب من تذرَّع بالدين يحارب به، ويتَّهم (بني أمية) بالخروج على الدين وقواعده، وأنهم مغتصبون للسلطة، كالخوارج والشيعة.

وهناك شخصيات أعلنت التمرد والثورة على (بني أمية) لأهداف شخصية، ولتحقيق طموحات ذاتية، والوصول إلى الحكم بأي ثمن، مثل (المختار بن أبى عبيد الثقفى)، و(عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث)، و(يزيد بن المهلب).

الخوارج:

كان الخوارج من أنصار (علي بن أبي طالب رضى الله عنه)، وشهدوا معه معركتي (الجمل) و(صفين)، ثم انشقوا عليه لمَّا قَبِل التحكيم بينه وبين (معاوية)، فسمُوا الخوارج، لخروجهم على إمامهم، ولما بالغوا وتطرَّفوا في عدائهم له، وعاثوا في الأرض فساداً، اضطر إلى مقاتلتهم في معركة (النهروان)، ثم عادوا (بنى أمية) ودخلوا في صراع طويل معهم.

وكانوا في مبدأ أمرهم فرقة واحدة، يدور خلافهم مع بقية الأمة حول الخلافة ومَن أحق بها، ومجمل أمرهم أن الخلافة حق لمن يصلح لها من المسلمين، وتتوافر فيه شروطها من العلم والأمانة والشجاعة، وليس من الضروري أن يكون عربياً فضلاً عن أن يكون قرشياً. ولو أنهم حصروا خلافهم مع غيرهم في جدل وحوار نظري يقوم على مقارعة الحجة

والدليل بالدليل لما كان في الأمر شيء، ولكن الخطر كل الخطر جاء من لجوئهم إلى العنف واستخدام السيف في فرض آرائهم، وقد بدأ مع (علي بن أبي طالب رضى الله عنه) مما جعل خصومهم يواجهون القوة بالقوة، وتكبَّدت الأمة الإسلامية عشرات الآلاف من الضحايا من أبنائها نتيجة هذه الخصومة العنيفة.

وظل الخوارج فرقة واحدة، تتبنَّى أفكاراً ومبادىء واحدة حتى وفاة (يزيد بن معاوية) سنة (٦٤هـ)، ثم بدأ الشقاق والخلاف يدب بينهم هم أنفسهم، فانقسموا فرقاً وأحزاباً، حتى وصل عددهم إلى ثلاثين فرقة، ثم تطور تفكيرهم بمرور الزمن، وبدءوا يخوضون في قضايا تدخل في صلب الدين، مثل مباحثهم في مرتكب الكبيرة هل هو مؤمن أو كافر، وغير ذلك من القضايا، وأشهر فرق الخوارج التي ناصبت الدولة الأموية العداء وشنت عليها الحرب، هي:

الأزارقة:

هم أتباع (نافع بن الأزرق)، أحد زعماء الخوارج الكبار، وهي تعد أشد فرق الخوارج تطرفاً في أفكارها السياسية والدينية، فهي ترى الخروج على الخليفة الذي يخالفها في آرائها وقتاله، وأتباعها يتبرءون ممن لا يوافقهم على ذلك، ويَعدُّونهم من القاعدين، ويكفرون مرتكب الذنوب الكبيرة ويحكمون بخلوده في النار، مخالفين في ذلك صريح القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]. ويبيحون دماء مخالفيهم في الرأي.

النجدات:

وينسبون إلى (نجدة بن عامر)، وهم اقل تطرفاً من (الأزارقة)؛ لأنهم لا يقولون بكفر مرتكب الكبائر.

البيهسية:

وينسبون إلى زعيمهم (بيهس)، وهم أقل تطرفاً من (الأزارقة) ويرون أن مخالفيهم في الرأي منافقون، تجرى عليهم أحكام المنافقين، لكنهم يجيزون حوارهم، والتزاوج معهم، وميراثهم.

الصفرية:

أتباع (زياد بن الأصفر)، وهم كذلك أقل تطرفاً من (الأزارقة)، ومعتدلون في أفكارهم.

الشيعة:

تعنى كلمة (الشيعة): الأهل والأتباع والأنصار، كما في قوله تعالى، في معرض حديثه عن (موسى)، عليه السلام ـ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾. [القصص: من ١٥].

وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، بعضهم لبعض، غير أن هذه الكلمة أصبحت علماً على أنصار (علي بن أبي طالب) ـ رضى الله عنه ـ وذريته من بعده، فإذا قيل: إن فلاناً من الشيعة، عُرف أنه منهم، أو قيل: في مذهب الشيعة كذا، أي: عندهم.

وقد نشأ التشيع بسيطاً في أول الأمر ثم تطور بُمضي الزمن، وأصبح مذهباً دينياً وسياسياً، كما كان أتباعه فرقة واحدة، شأنهم في ذلك شأن

الخوارج، ثم لم يلبثوا أن تفرعوا إلى فرق، مثل (الإمامية الاثنا عشرية)، و(الزيدية) و(الإسماعلية).

ويخالف رأي الشيعة في الخلافة جمهور الأمة الإسلامية التي ترى أن الخلافة أمر من الأمور العامة، يفوض للأمة أمر البت في شأنها، وتختار من تراه الأصلح لدينها ودنياها لتولي منصب الخلافة.

أمَّا هم فيرون أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوَّض إلى الأمة، بل هي ركن من أركان الإسلام، لا يجوز للنبي ﷺ إغفاله، ولا تفويض الأمة فيه، بل يجب عليه تعيين الإمام للأمة بعده، وأن الإمام لابد أن يكون معصوماً من الكبائر والصغائر، ويزعمون أن النبي ﷺ فعل ذلك، وعيَّن (علي بن أبي طالب)، وقد تعددت ثوراتهم المسلحة ضد الدولة الأموية طلباً للخلافة.

انتشار الإسلام في العصر الأموي:

امتدت الفتوحات الإسلامية من حدود (الصين) إلى (الأندلس)، ومن (بحر قزوين) إلى (المحيط الهندي)، ودخلت في الدولة الإسلامية شعوباً كثيرة، مختلفة في الديانات والمذاهب واللغات والأجناس والثقافات والعادات والتقاليد، ولم تكن تلك الفتوحات غزواً عسكرياً مستغلاً للشعوب ناهباً لثرواتها، وإنما كان فتحاً دينياً وثقافياً ولغوياً، فانتشر الإسلام في البلاد المفتوحة بخطى حثيثة، وتغيرت أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ويمكن القول: إن هذا العالم الفسيح أصبح عالماً إسلامياً واحداً، فسيادة المسلمين عليه لا تنازع، والإسلام هو الدين الغالب في سماحة

ورحمة، والحاكم في عدل، ولم تأخذ المسلمين نشوة النصر والغلبة، التي قد تحملهم على الكبر والتعالي وإذلال الشعوب المغلوبة، بل عاملوهم معاملة كريمة، وصانوا أرواحهم وأموالهم وعقائدهم، وحفظوا عهودهم ومواثيقهم معهم، ووفوا بها في صدق وإخلاص، وأشركوا أبناءهم في حكم بلادهم وإدارتها.

عوامل انتشار الإسلام:

أولاً: عالمية الإسلام:

لا جدال في أن الإسلام دين عالمي، ورسالته للجنس البشري كله؛ لقوله تعالى مخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾. [النبأ: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾. [الأعراف: ١٥٨].

وقال النبي ﷺ: (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة؛ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين)[١].

وليس معنى عالمية الإسلام أن يُنشَر بالقوة وبحد السيف، كما يزعم أعداء الإسلام، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر النبي ﷺ.

(١) رواه البخاري برقم ٣٥٣٥ كتاب: المناقب باب: خاتم النبيين.

ثانياً: التسامح:

تعامل المسلمون الفاتحون مع أبناء الشعوب المفتوحة بتسامح ورحمة، وقد شهد بذلك غير المسلمين، فيقول (جوستاف لوبون): (لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب).

وليس أدل على وجوده هذه السياسة المتسامحة من رد (أبي عبيدة بن الجراح) الجزية التي أخذها من أهل (حمص) إليهم، حين اضطر إلى الانسحاب من (حمص) للدفاع عن (دمشق)، ولما سألوه في دهشة عن سبب ذلك، قال لهم: (إنما رددنا عليكم أموالكم، لأنه بلغنا ما جُمِع لنا من الجموع ـ يقصد الروم الذين تجمَّعوا للهجوم على دمشق ـ وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، فرددنا عليكم ما أخذنا منكم).

فقال أهل (حمص): (لولايتكم وعدلكم أحب إلينا لحاكمنا فيه من الظلم والغشم ـ يقصدون الحكم البيزنطي ـ وردَّكم الله إلينا سالمين، والله لو كانوا هم ما ردُّوا علينا شيئاً).

ثالثاً: إشراك أبناء البلاد المفتوحة في إدارة بلادهم:

أدرك المسلمون أن سير الأمور في البلاد المفتوحة سيراً حسناً، وتحقيق مصالح أهلها يكمُن في الأسلوب الإداري الذي سيتبعونه في إدارة البلاد، ومن ثم لم يترددوا في الاحتفاظ بالنظم الإدارية التي وجدوها في البلاد سواء التي كانت تابعة للدولة البيزنطية مثل (مصر) و(الشام) و(شمالي إفريقيا)، أو التي كانت تابعة للفرس، مثل (العراق) وبلاد فارس نفسها، ولم يكتفوا بذلك، بل طوروا من النظم ما يرونه ضرورياً، ليتفق مع دينهم ونظامهم السياسي والاجتماعي القائم على

أسس من الشريعة الإسلامية، وما يحقق الصالح العام للدولة وللأمة.

وكان (عمر بن الخطاب رضى الله عنه) هو أول من سنَّ هذه السنة، فاقتبس نظام الدواوين، الذي يشبه نظام الوزارات في الدولة الحديثة من النظم الفارسية والبيزنطية، ولم يجد غضاضة في ذلك.

ولم يقف المسلمون عند حد الاستفادة من النظم الإدارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة، بل أبقوا أيضاً على الجهاز الإداري الذي يسيِّر العمل، واحتفظوا لأنفسهم بالمناصب العليا كالإمارة، وقيادة الجيش والقضاء والشرطة.

وإزاء هذه السياسة كان المجال رحباً أمام أبناء البلاد المفتوحة الذين لم يعتنقوا الإسلام للوصول إلى المناصب العليا في الجهاز الإداري، التي كانوا محرومين من توليها في ظل الحكومات السابقة على الفتح الإسلامي، على حين كان الطريق مفتوحاً لمن يسلم منهم للوصول إلى مناصب الإمارة أو قيادة الجيوش، مثل (طارق بن زياد) الذي كان من أصل بربري، لكنه صار من كبار الفاتحين، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: (إن روح الإسلام الحقَّة هي التي حفَّزت العرب إلى اتباع سياسة التسامح الديني نحو المصريين..). أي أن الأقباط أصبحوا يتمتعون بحرية تامة في الدين، كما أصبح لهم نصيب كبير في إدارة بلادهم... ولم يقتصر القبط على الأعمال الإدارية الصغيرة، بل شقوا طريقهم إلى أعمال لها خطورتها، ففي ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (٦٥ـ ٨٥هـ) كان هناك كاتبان قبطيان لإدارة مصر، واحد لمصر العليا (الصعيد) ـ والآخر لمصر السفلى ـ (الدلتا) بل أكثر من ذلك فقد تولَّى ولاية الصعيد والٍ قبطي اسمه (بطرس).. كما كان حاكم (مريوط)

قبطيا اسمه (تاوناس). ولم يحدث هذا في (مصر) وحدها بل كان ذلك في البلاد المفتوحة كلها، ففي الشام ـ مقر الدولة الأموية ـ بقى أهم الدواوين وأخطرها، وهو ديوان الخراج ـ الذي يمثل وزارة المالية في الوقت الحاضر ـ في أيدى المسيحيين من أسرة (سرجيوس الرومي).

ونتيجة لهذه السياسة شعر أهل الذمة (اليهود والنصارى) بالأمان والاطمئنان، فأقبلوا على اعتناق الإسلام في حرية تامة ودون إكراه.

رابعاً: الأوضاع الدينية في البلاد المفتوحة:

أقبل كثير من أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام لبساطته وملاءمته للفطرة الإنسانية، ولعدم اقتناعهم بالأديان التي كانت سائدة في بلادهم، ومعظمها كانت ديانات وضعية وثنية كا(الزراداشية)، و(البوذية)، و(المانوية) و(المزدكية)، حتى (اليهودية) و(النصرانية) دخلها الزيف والتحريف والتعقيد، وأصبحت كل منهما تستعصي على الفهم. يقول أحد الباحثين المسيحيين: (ومن المرجح أن تأثير المسيحية في السواد الأعظم من شعب مصر كان قليلاً من القرن السابع ـ عند الفتح الإسلامي لها ـ وأن التعليقات النظرية التي استغلها زعماؤهم في إثارة شعور الكراهية والمقاومة في وجه الحكومة البيزنطية، كان يمكن أن يدركها عدد قليل جداً من الناس، كما أن سرعة انتشار الإسلام قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية، وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن يكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الآهلين إلى الإسلام).

خامساً: أثر سياسية الدولة الأموية في انتشار الإسلام:

حافظ الأمويون على روح التسامح الإسلامي في سياستهم للبلاد المفتوحة إلى حد كبير، فالتزموا بنصوص المعاهدات وروحها التي أعطيت لأهالي تلك البلاد، فلم ينكثوا عهداً أو ينقضوا معاهدة، وإذا حدث شيء من هذا فإن الدولة تسارع بتصحيح الخطأ، ولم تذكر المصادر التاريخية سوى حدث واحد من هذا القبيل وقع في العصر الأموي، حين نقض (قتيبة بن مسلم) عهده مع أهل (سمرقند)، وكان قد دخل مدينتهم بناءً على اتفاق معهم على أن يخرج منها بعد أن يبنى فيها مسجداً، لكنه لم يخرج منها ناقضاً اتفاقه معهم، فشكوا إلى (عمر بن عبد العزيز)، فأمر الوالي بأن يحقق في المسألة بإنصاف، فحكم القاضي المسلم بإخراج المسلمين من (سمرقند)، وأن ينابزوا أهلها على سواء، فكرهوا القتال، وأقروا المسلمين على البقاء فيها، وأسعدهم هذا المسلك من الحكومة الإسلامية التي لم تفرق بين المسلم وغير المسلم في العدل، فأقبلوا على اعتناق الإسلام.

انتشار الإسلام في الشام:

كان معظم سكان الشام عند الفتح الإسلامي من العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بعدة قرون، وأقاموا هناك ممالك وإمارات، وإلى جانب هؤلاء كانت هناك أقليات من اليهود والأرمن المسيحيين، والروم، والأكراد.

وقد وقف عرب الشام في بداية الفتوحات الإسلامية في عهد الراشدين مع الروم ضد أبناء عمومتهم العرب الفاتحين، ظناً منهم أنهم

جاءوا إلى الشام لمزاحمتهم فيه، وأخذ أرضهم وأموالهم، لكنهم حين فطنوا إلى أهداف المسلمين الرفيعة ورسالتهم السامية، القائمة على العدل والحرية والمساواة، اطمأنت نفوسهم إلى الإسلام، وأَنسوا إلى جانب المسلمين، وبخاصة بعد انتهاء المعارك ووضوح نتائجها، وزوال سلطان الروم عنهم.

وقد أدَّى ذلك إلى مشاركة عرب الشام عربَ الجزيرة في عقيدتهم ومثلهم وتطلعهم للحياة، وبخاصة أنهم وجدوا أبواب العمل في الدولة الإسلامية مفتوحة أمامهم، فمن أسلم أصبح منهم، وربما تدفعه مواهبه إلى الصفوف الأولى مع كبار القادة العظام، مثل (حسان بن النعمان) الذي كان ينتمي إلى الأسرة الحاكمة في الشام عند الفتح الإسلامي، ومن بقي على مسيحيته شارك في ميادين العمل الإداري والمالي.

وكان نشر الإسلام في الشام موضع عناية المسلمين وهدفهم، منذ الخطوات الأولى للفتح، فقد أرسل (يزيد بن أبى سفيان) إلى (عمر بن الخطاب) يطلب معلمين من الصحابة، يعلمون الناس شرائع الإسلام ويقرءونهم القرآن، فبعث إليه عدداً من كبار الصحابة، منهم: (عبادة بن الصامت)، و(أبو الدرداء)، (معاذ بن جبل)، رضى الله عنهم، وفي حرية تامة، فأسلمت أغلبية قبيلة (الغساسنة) كبرى القبائل العربية في الشام، وكانت لها دولة تبسط سلطانها على (جنوبيّ سوريا)، (شرقي الأردن)، وكذا قبائل (لخم) و(جذام) و(كلب).

ولم يقتصر الدخول في الإسلام على القبائل العربية بل اعتنق الإسلامَ كثيرٌ من المسيحيين غير العرب، كالأرمن والروم، لما فيه بساطة وسماحة، بالقياس إلى المسيحية التي تحولت إلى طلاسم وألغاز وجدل عقيم.

ويذكر (توماس آرنولد) أن (انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية كان نتيجة شعور بالاستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهللينية إلى اللاهوت المسيحي، لأنها أحالت تعاليم المسيح ـ عليه السلام ـ البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها، فلما أهلَّت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف، وتمزَّقت بفعل الانقسامات الداخلية، قادرة على مقاومة إغراء الدين الجديد ـ الإسلام ـ الذي بدَّد بضربة واحدة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدَّم مزايا مادية جديدة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل، وحينئذٍ ترك الشرق المسيح، وارتمى في أحصنان نبي بلاد العرب).

وكان من الطبيعي أن يكون حجم انتشار الإسلام في الشام كبيراً، لقربه من (الحجاز) منزل الوحي، ووفود كثير من الصحابة إليه في الفتوحات وبعدها، وإقامتهم فيه، وإقامة كثير من أفراد جيوش الفتح الوافدة من الجزيرة العربية في الشام.

ولما قامت الدولة الأموية سنة (٤١ هـ) واتخذت من (دمشق) عاصمة لها، اتسع نطاق انتشار الإسلام بين القبائل العربية، وأصبح الشام قطراً عربياً إسلامياً خالصاً، يعيش فيه بعض الأقليات المسيحية واليهودية في حرية وأمان.

انتشار الإسلام في مصر:

فُتحت (مصر) في عهد (عمر بن الخطاب رضى الله عنه)، ومنذ الأيام الأولى للفتح أقبل بعض المسيحيين على الدخول في الإسلام بحرية تامة وحتى قبل تمام الفتح، فقد كتب (يوحنا النقيوسى) ـ وهو رجل دين مسيحي كان قريباً من حوادث الفتح ـ أن بعض المصريين تركوا الدين المسيحي وأسلموا، وصحبوا جيوش العرب أثناء الفتح، كان منهم (يوحنا) أحد رهبان (دير سيناء).

واستمرت حركة الدخول في الإسلام في زيادة مطردة، فدخل على عهد الخليفة (هشام بن عبد الملك) أربعة وعشرون ألفاً منهم الإسلام دفعة واحدة سنة (١٠٨ هـ).

ولم يكن دخول الإسلام مقصوراً على طبقة بعينها، بل دخل فيه ناس من كل الطبقات، كما اعتنقه كثير من الروم الذين بقوا في مصر بعد الفتح الإسلامي.

وباستمرار دخول المسيحيين في مصر في الإسلام أصبح أغلبية السكان مسلمين، وتعلموا اللغة العربية، وأصبحت مصر بلداً عربياً إسلامياً، وبقى بعض (الأقباط) على دينهم حتى الآن، وهذا دليل سماحة الإسلام، وآية على أن من اعتنق الإسلام منهم اعتنقه عن رضى واقتناع ودون إكراه، فلو أكره الفاتحون المسلمون الأقباط على ترك دينهم والدخول في الإسلام؛ لما بقي مسيحي واحد في مصر.

وكان دور المسلمين في جذب المسيحيين وغيرهم دور الداعي إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة، والقدوة الطيبة، بالإضافة إلى جو

الحرية وسريان روح الرحمة والتسامح الذي أشاعه الخلفاء والحكام والأمراء، ولم يعد المسلمون أنفسهم طبقة متميزة على أهل البلاد، وإنما اختلطوا بهم وتعايشوا معهم وصاهروهم، وعاملوهم بتقدير واحترام، وخاصة أن النبيَّ أوصى المسلمين خيراً بأهل مصر حين يفتحونها، فإن لهم ذمة ورحماً، فهاجر أم (إسماعيل) عليه السلام منهم، وكذلك (مارية القبطية) التي تزوجها النبي ﷺ وأنجب منها (إبراهيم).

انتشار الإسلام في شمالي إفريقيا:

تشمل منطقة (شمال إفريقيا) المنطقة التي تمتد من حدود (مصر) العربية حتى شاطىء (المحيط الأطلنطى)، وهي من أكثر المناطق التي أرهقت المسلمين في فتحها، الذي استغرق نحو سبعين سنة، وذلك بسبب المقاومة العنيدة التي لقيها المسلمون من سكان البلاد، ومعظمهم من (البربر) الذين يعتزون بحريتهم وكرامتهم.

وكانت مقاومتهم الشديدة للفتح ترجع إلى جهلهم بطبيعة الإسلام وأهدافه ومبادئه، وظنهم أن الفاتحين كغيرهم من الغزاة، جاءوا لاستغلال بلادهم والاستيلاء على خيراتها، فلما فهموا الإسلام وما يحمله من عزة وكرامة، واحتكوا بالفاتحين المسلمين وسماحتهم ورحمتهم أقبلوا على الإسلام بحماس لا نظير له، وحملوا رايته، وجاهدوا في سبيله، وشاركوا في فتوحاته، فكان لهم في فتح (الأندلس) بلاءٌ حسن.

وعلى الرغم من طول أمد فتح (شمالي إفريقيا)؛ بسبب المقاومة العنيدة التي أبداها السكان فإن استجابتهم للإسلام واعتناقهم له كان أسرع وأوسع انتشاراً مما حدث في بلاد المشرق الأسبق فتحاً مثل (العراق)

و(الشام) و(مصر). وقد بدأ السكان يقبلون على الإسلام منذ فتح (عمرو بن العاص) برقة في عهد (عمر بن الخطاب رضى الله عنه) وظل هؤلاء متمسكين بإسلامهم على الرغم من توقف الفتوحات فترة طويلة؛ بسبب الفتن الداخلية في الدولة، بدليل وجود كثير من أهل البلاد في جيش (عقبة بن نافع)، عندما أسند إليه (معاوية) قيادة جيش الفتح في (شمالي إفريقيا)، كما اسلم على يدي (عقبة) في تلك الفترة أعداد كبيرة.

ثم خطا الإسلام في المغرب خطوات واسعة، وسعى سعياً حثيثاً في عهد (أبي المهاجر دينار)؛ لحسن سياسته التي جذبت ملك البربر (كسيلة) إلى الإسلام، وأسلم بإسلامه أعداد هائلة، وكان (أبو المهاجر) يبني مسجداً في كل مدينة يفتحها، ويعمل على امتزاج العرب الفاتحين بأهالي البلاد؛ ليكون لذلك أثره في تعليمهم الدين واللغة العربية.

ثم كان ظهور (حسان بن النعمان) ومن بعده (موسى بن نصير) في (شماليّ إفريقيا) من عوامل التمكين للإسلام في البلاد؛ فاستطاع (حسان) أن يقضي على الوجود البيزنطي قضاءً تاماً، ثم على مقاومة (الكاهنة) التي تزعمت البلاد بعد مقتل (كسيلة).

والعجيب أن هذه المرأة العنيدة وهي تخوض معركتها الأخيرة مع (حسان)، أوصت أبناءها بالانضمام إليه واعتناق الإسلام إن هي هُزمت في الحرب، فلما حدث ذلك أسلم أبناؤها، وعيَّنهم (حسَّان) أمراء على قبائلهم، وأسلم بإسلامهم اثنا عشر ألف رجل دفعة واحدة.

وأمَّا (موسى بن نصير) فقد ركز اهتمامه على نشر الإسلام بين السكان، وكان يأمر جنده العرب بتعليم (البربر) المسلمين في جيشه

القرآن الكريم، وتفقيههم في الدين، كما ترك بين قبائل (المصامدة) سبعة عشر رجلاً من العرب ليقوموا بالغرض نفسه.

وكان لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أثر كبير في نشر الإسلام بالمغرب، فقد أرسل عشرة رجال من صلحاء التابعين إلى هناك، ليعلموا الناس الدين، فتوافد عليهم الناس من أنحاء البلاد كلها، ليتلقوا عنهم أمور دينهم.

ومن المعروف أن المسيحية قد دخلت (شمالي إفريقيا) منذ القرون الأولى لميلاد السيد المسيح، عليه السلام، وبخاصة في منطقة الساحل المطلة على (البحر المتوسط) في حين بقيت المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل على وثنيتها.

انتشار الإسلام في (الأندلس):

لمَّا فتح المسلمون (الأندلس) في أواخر القرن الهجري الأول (٩٢- ٩٥هـ) كانت ديانة معظم السكان هي المسيحية الكاثوليكية، بالإضافة إلى جالية يهودية كبيرة وبعض الوثنيين، ثم بدأت أعداد كبيرة منهم تعتنق الإسلام، يأتي في مقدمتهم طبقة الرقيق التي وجدت في الإسلام نجاتها وخلاصها من الظلم والاضطهاد الذي كانت تعانيه تحت حكم (القوط).

ولم تكن طبقة الرقيق وحدها هي التي أسرعت إلى اعتناق الإسلام، بل اعتنقه كثير من الوثنيين وأشراف الميسحيين، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الطبقات الوسطى والدنيا، بل إن بعض القساوسة اعتنق الإسلام، مثل (تيود سكلوس) الذي كان رئيس أساقفة (إشبيلية).

وقد حدث ذلك كله في السنوات الأولى، التي أعقبت الفتح

الإسلامي مباشرة، دون إكراه من المسلمين لإجبار أهل (الأندلس) وحملهم على الإسلام حملاً، بل أقبلوا عليه عن رضى واقتناع تام، ساعد على ذلك بساطة الإسلام وبعده عن التعقيدات الكهنوتية التي حفلت بها ديانتهم، واختلاط المسلمين الفاتحين بأهل البلاد ومصاهرتهم، وقد فعل ذلك أعداد كبيرة من المسلمين، حتى الأمراء منهم، فقد تزوج (عبد العزيز بن موسى بن نصير) بابنة الملك القوطي (رذريق)، وحذا حذوه كثير من القادة والجنود، ونتج عن هذه المصاهرات جيل جديد في (الأندلس) عُرف (بالمولدين)، وهم الذين ولدوا من آباء عرب وأمهات أندلسيات، وهؤلاء نشأوا مسلمين بطبيعة الحال، وسرعان ما تزايد عددهم، وأصبحوا يشكلون غالبية السكان، واحتلوا مكانة كبيرة في المجتمع وكان لهم دورهم في تسيير أمور الدولة الإسلامية.

وقد أصبح هذا الجزء الذي يقع في جنوبي غربي (أوربا) بلداً عربياً مسلماً في حرية تامة ودون تعصب أو إكراه، ولم يستغل الفاتحون المسلمون انتصارهم على (القوط) في استئصال المسيحية من البلاد كما فعل (فرديناند) و(إيزابيلا) في استئصال المسلمين بعد ذلك بثمانية قرون.

انتشار الإسلام في العراق:

كان معظم سكان (العراق) عند الفتح الإسلامي عرباً من قبائل (ربيعة)، مثل: (بكر بن وائل) و(تغلب)، ثم جاء المناذرة اللخميون ومن هم من قبائل (اليمن)، فأقاموا في (العراق) إمارة عربية عُرفَت بإمارة (المناذرة)، كانت خاضعة للفرس، تأتمر بأمرهم، وتصد غارات القبائل العربية عليهم، وهجمات البيزنطيين وحلفائهم غساسنة الشام، وقبيل ظهور الإسلام أنهى الفرس سنة (٦٠٢م) حكم المناذرة، وحكموا

(العراق) حكماً مباشراً.

ولم يكن موقف عرب (العراق) من الفاتحين المسلمين عدائياً صريحاً، وإنما تراوح بين العداء والوقوف مع الفرس وتأييدهم وبين التعاون مع العرب الفاتحين، ثم الترحيب بهم بعد توالي انتصاراتهم على الفرس في (القادسية) و(نهاوند).

وقد وجد سكان (العراق) أنفسهم بعد الفتح تحت حكم المسلمين يعامَلون معاملة حسنة، تُحفظ لهم كرامتهم وحريتهم، وتصان عقائدهم، ولم تنتزع أرضهم، ولم يجبرهم أحد على الدخولِ في الإسلام، وكانوا قبل ذلك أقرب ما يكونون إلى حال الرق، ذلاً واستعباداً للفرس، فأقبلوا على اعتناق الإسلام في حرية تامة.

ولم يُسلِم عرب (العراق) فقط، بل اسلم كثير من الفرس أنفسهم، الذي يعيشون في (العراق)، وقدموا للمسلمين مساعدات كثيرة، ووقفوا إلى جانبهم في المعارك، فاستشار (سعد بن أبى وقاص) من أسلم من الفرس في كيفية التغلب على الفيلة الفارسية المدربة على الحرب والقتال، ولم تكن للفاتحين المسلمين خبرة بمواجهتها في ساحات المعارك، فدلوه على مقاتلتها، بإن تُضرب في عيونها ومشافرها، فلا تستطيع القتال بعد ذلك.

ثم ازداد إقبال الفرس على الدخول في الإسلام بعد انتصار المسلمين في (القادسية)، فأسلم أربعة آلاف من (الديلم) دفعة واحدة، وجاهدوا مع *الفاتحين في (نهاوند)*، ويدل تزايد الإقبال على الدخول في الإسلام، سواء من العرب أو من غيرهم على أن اشتراك الطبقات المقهورة مع

الفرس ضد المسلمين في البداية، إنما كانو خوفاً من بطشهم، فلما تحطمت قوتهم في (القادسية) زال الخوف، وأقبل الناس على الإسلام.

وإلى جانب هؤلاء أسلمت أعداد كبيرة من الأساورة والأشراف وعلية القوم، فرحَّب بهم القادة العرب، وأشركوهم معهم في الحكم، فيروي (الطبري) أن (سعد بن أبى وقاَّص) كتب إلى (عبد الله بن المعتم) أن أخلف على (الموصل) (مسلم بن عبد الله) الذي كان قد أُسِرَ في (القادسية)، وأن (القعقاع بن عمرو التميمي) استخلف على (حلوان) ـ مدينة فارسية شمالي شرقي (المدائن) ـ بعد فتحها، رجلا فارسياً اسمه (قباذ).

وقد أخذ الإسلام ينتشر في (العراق) باطِّراد إلى أن أصبح بلداً عربياً إسلامياً خالصاً في العصر الأموي، ومركزاً ودعامة لتثبيت الحكم الإسلامى في بلاد فارس، ومنطلقاً للفتوحات الإسلامية في بلاد (ما رواء النهر) و(السند).

انشار الإسلام في بلاد فارس:

كانت الديانة الرئيسية في بلاد فارس قبل الفتح الإسلامى هي الديانة (الزرادشتية)، وهي ديانة وثنية، تؤمن بأن للعالم إلهين، أحدهما إله الخير، والآخر إله الشر، وإلى جانب تلك الديانة التي كان يدين بها ملوك (آل ساسان) توجد (البوذية) و(المانوية) و(المزدكية) بالإضافة إلى اليهودية والمسيحية على نطاق ضيق.

ولم يأخذ المسلمون من هذه الأديان موقفاً عدائياً، ولم يتخذوا إجراءً ضدها، بل صانوا للناس حرية الاعتقاد، إلى الحد الذي اعتدُّوا فيه

بالمجوسية الفارسية وهي عبادة النار، وعاملوا أتباعها معاملة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فقبلوا منهم الجزية نظير بقائهم على دينهم.

ولما اطمأنت نفوس أهل فارس أو معظمهم إلى حكم الفاتحين نظروا إلى دينهم، مقارنين بينه وبين ما لديهم من أديان فلم يجدوا وجهاً للمقارنة، فكلها أديان وثنية مليئة بالخرافات والأوهام، فتركوها غير آسفين، وأقبلوا على الإسلام في حرية تامة، ودون ضغط أو إكراه، ولم يفعل ذلك أتباع الديانات الوثنية فقط، وإنما فعله كثير من المسيحيين. يقول (آرنولد): (وقد أدَّى تغير الحكومة ـ الساسانية ـ إلى تخليص الكنيسة المسيحية المضطربة في فارس من استبداد الملوك الساسانيين الذين أثاروا الخلافات.. وزادوا في فوضى الطوائف ـ المسيحية ـ المتنافرة، ولعل هذه الأحوال المضطربة قد هيأت عقول الناس لذلك التحول الفجائي في شعورهم، الذي سهل تغيير العقيدة، وإلى جانب الاضطراب السياسي في الدولة ظهرت تلك الفوضى الأخلاقية التي ملأت عقول المسيحيين.. فمالوا إلى هذا النظام العجيب من التنسيق العقلي، الذي ينمو فيه الدين الجديد في سهولة ويسر، ويكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى، ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أسس جديدة، وبعبارة أخرى كان أهل فارس قد بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحول إلى ذلك الدين الجديد، والترحيب باعتناقه في حماسة ملحوظة؛ لما يمتاز به من البساطة، وهكذا قُدِّر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم، وأن يفتح أمام الناس سبلاً واضحة من الآمال الكبيرة، وأن يخلصهم في أقرب وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة).

وقد تتابع دخول الفرس بأعداد كبيرة في الإسلام دون إكراه،

مدفوعين بالدعوة الصادقة التي يقوم بها المسلمون لدينهم، والتعريف به وشرح مبادئه، والإلتزام بها في حياتهم، كل ذلك كان له عظيم الأثر في التمكين للإسلام في البلاد.

ثم خطا الأمويون خطوات واسعة أدَّت إلى انتشار الإسلام واللغة العربية في بلاد فارس، تمثلت في تهجير عشرات من القبائل العربية إلى الأقاليم الفارسية وتسكينهم فيها، فنقل (زياد بن أبى سفيان) والي (العراق) في خلافة (معاوية) سنة (٥١ هـ) خمسين ألف أسرة عربية من أهل (البصرة) و(الكوفة) إلى (خراسان) دفعة واحدة، وتتابعت بعد ذلك الهجرات العربية إلى الأقاليم الفارسية بأعداد كبيرة؛ مما كان له أثر كبير في نشر الإسلام عن طريق المعايشة، والقدوة العملية، وإقامة شعائر الدين.

وفي الوقت نفسه هاجرت أعداد كبيرة من الفرس إلى المدن العربية الجديدة (كالبصرة) و(الكوفة)، بقصد العمل في التجارة والأعمال الحرفية، كأعمال البناء التي لا يجيدها العرب، كما عمل كثيرون منهم في دواوين الدولة، وقد بلغ عدد العمال من الفرس - أي الموظفين - المقيدين في ديوان (عبد الله بن زياد) والي (البصرة) (٥٥- ٦٤ هـ) مائة وأربعين ألفاً، وهو رقم غير مبالغ فيه، لأن ديوان (البصرة) كان يشمل الموظفين المدنيين في جنوبي (العراق)، وكل المقاطعات الجنوبية الشرقية من بلاد فارس حتى (خراسان) شمالاً.

وقد علل (ابن زياد) استخدام هذا العدد الكبير من الفرس في الديوان بكفاءتهم ومهارتهم وأمانتهم في العمل، وهذا يعنى ثقة الدولة بالموظفين من الفرس، وهذه الثقة شجعتهم على الدخول في الإسلام.

وأدّى وجود أعداد كبيرة من الفرس في البيوت العربية، ومصاهرتهم للعرب، إلى انتشار الإسلام بينهم، واتخاذ أسماء وألقاب عربية.

ويمكن إجمال القول بأن غالبية الشعب الفارسي تحولت إلى الإسلام في العصر الأموي، وأصبحت عنصراً مؤثراً في المجتمع والدولة الإسلامية ذاتها، وكانت في طليعة المجاهدين في فتح بلاد (ما وراء النهر).

موقف الموالي الفرس في الدولة الأموية:

كان لبعض الموالي الفرس مواقف عدائية ضد الدولة الأموية، على الرغم من تسامح الحكومة مع الفرس وإشراكهم في الإدارة، بل تفضيلهم أحياناً على العرب أنفسهم؛ فلم يتركوا فرصة للخروج عليها إلا انتهزوها، ولا دعوة لثائر إلا انضموا تحت لوائه، أيا كان اتجاهه السياسي، فانضموا إلى (ابن الزبير)، و(المختار الثقفي)، و(عبد الرحمن بن الأشعث)، و(يزيد بن المهلب)، وغيرهم، وناصروا الخوارج، وتحالفوا مع الشيعة دائماً.

وهذه المواقف العدائية من الدولة الأموية جعلت بعض الباحثين يظنون أنهم فعلوا ذلك لظلم وقع عليهم من الدولة، وراحوا يكيلون التهم جزافاً للأمويين بأنهم متعصبون للعرب ضد الفرس، وهذا اتهام لا دليل عليه وبعيد عن واقع الأمر، فالدولة الأموية عُرِفَت بتسامحها من غير المسلمين من أهل الذمة، فكيف يضيق صدرها بالمسلمين من الموالي ولعل السبب الرئيسي في عداء الموالي للدولة الأموية يكمن في أن كثيرين من أبناء فارس لم يستطيعوا التخلص تماماً من ماضيهم، حيث كانوا

أصحاب السيادة على العرب، ولهم نفوذ في العالم، فلما فتح المسلمون بلادهم عزَّ عليهم أن يحكمهم العرب، فعملوا كل ما في وسعهم لتقويض الدولة الأموية.

ولم يكن الموالي كلهم يعادون العرب، ولذا نستطيع أن نقسم الموالي إلى أربع طوائف رئيسية، وهي:

الطائفة الأولى: أسلمت إسلاماً حقيقياً، ارتفع بها فوق العصبية القومية، مثل: (سلمان الفارسي)، رضى الله عنه، و(الحسن البصري) التابعى المعروف، وهذه الطائفة لم تر بأساً في أن يحكمها العرب، ونظرت إليهم نظرة تقدير واحترام؛ لأنهم سبب هدايتها، وبادل العرب هذه الطائفة وداً يود تقديراً بتقدير، وكان كبار التابعين من الموالي، مثل (الحسن البصري)، و(محمد بن سيرين)، و(عطاء بن يسار)، و(عطاء بن أبي رباح)، موضع احترام المجتمع والدولة، وكان تأثيرهم في الحركة العلمية عظيماً.

الطائفة الثانية: وهي التي أسلمت إسلاماً رقيقاً، ولم تتخلص من الماضي تماماً، وظلت تفخر بالأمجاد الفارسية القديمة، وهذه الطائفة لم ترفض الإسلام ديناً ولكنها رفضت السيادة والحكم العربيين، وظلت تسعى للقضاء عليهما بدأب شديد، وكانت نواة الحركة الشعوبية التي نادت بتفضيل الفرس على العرب.

الطائفة الثالثة: وهي التي أسلمت نفاقاً، لأنها رأت أن السبيل إلى المال والجاه والسلطان لا يكون إلا بالدخول في الإسلام، فأعلنت اعتناقه ولم يدخل الإيمان قلوبها، ولم تدع فرصة للكيد للعرب إلا انتهزتها، كما

دعت إلى الشعوبية والمذاهب الدينية القديمة، وهذه الطائفة كانت أساساً لحركة الزندقة.

الطائفة الرابعة: وهي التي لم تسلم، وبقيت على مجوسيتها بفضل الحرية التي منحها العرب لأهل بلاد فارس.

والذي نريد أن نخلص إليه أن القول باضطهاد الدولة الأموية للموالي، وعداء الموالي للدولة كان رد فعل لذلك، هو قول بعيد عن الحقيقة، فلم تكن هناك سياسة مرسومة للأمويين تعادي الموالي الفرس، وفي الوقت نفسه لا ننكر أن يكون بعض العرب قد نظر إلى الموالي الفرس نظرة تعالٍ وتكبر، لكن ذلك لم يكن سياسة دولة، وإنما كان نظرة البدو الجفاة الذين لم يفهموا الإسلام على وجهه الصحيح.

انتشار الإسلام في بلاد ماوراء النهر:

فتح (قتيبة بن مسلم الباهلي) بلاد (ماوراء النهر) ـ آسيا الوسطى ـ في خلال عشر سنوات (٨٦ـ ٩٦هـ)، وأقبل كثير من أهالي تلك البلاد على الدخول في الإسلام، لما فيه من عدل وسماحة ورحمة، وشجعهم على ذلك أن معظمهم وثنيون يعبدون الأصنام، وبعضهم يدين بالأديان التي كانت منتشرة في بلاد فارس المجاورة لهم، مثل (الزرادشتية) و(المانوية) و(المزدكية)، وكلها أديان فاسدة، ولم يكن تمسك الناس بها قوياً، ولذا سرعان ما أقلعوا عنها بعد أن قارنوا بينها وبين الإسلام، فأقبلوا عليه في حماس شديد.

وعندما دخل (قتيبة بن مسلم) مدينة (سمرقند) سنة (٩٣ هـ)، وجد فيها عدداً كبيراً من الأصنام، فقرر تحطيمها، فخوّفه سكانُها من ذلك،

وقالوا له: إن من يقترب منها تُهلكه، فلم يبالِ بذلك، وأقسم ليحطمنَّها بيده، فحطمها وحرقها بالنار، فلما رأى الناس ذلك ولم يحدث (لقتيبة) شيء أدركوا أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، وأسرعوا إلى اعتناق الإسلام.

وقد تردَّد صدى هذه الحادثة في المدن الأخرى، فأسلم من أهلها أعدادٌ هائلة، حتى إنه لما سار (قتيبة) لفتح إقليم (الشاش) فيما وراء نهر (سيحون) سنة (٩٤هـ)، أي بعد سنة واحدة من تحطيمه لأصنام (سمرقند)، كان جيشه يضم عشرين ألف مسلم من أهل (بخارى).

وحرص الفاتحون المسلمون على دعوة الناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، والتأثير فيهم بالقدوة الطيبة، وكان (قتيبة بن مسلم) يعني ببناء المساجد في المدن والقرى؛ حتى تؤدى فيها الصلاة، ويقوم الدعاة فيها بتعليم الناس شعائر الإسلام وشرائعه.

غير أن تزايد إقبال الناس على الإسلام جعل الولاة المسلمين أمام مشكلة مالية، جعلتهم يأخذون الجزية من المسلمين الجدد من أهل البلاد، مخالفين بذلك قواعد الإسلام التي تقرر أن لا جزية على من أسلم، ولم يطل هذا الأمر كثيراً، إذ صحح (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) هذا الإجراء الخاطىء وكتب إلى الولاة موبخاً إياهم على فعلتهم، قائلاً قولته المشهورة: (قبَّح الله رأيكم، إن الله بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً).

وكان الخليفة (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) معنياً بنشر الإسلام في تلك المنطقة، وكتب إلى ملوك بلاد (ما وراء النهر) وأمرائهم ودعاهم

إلى الإسلام، فأسلموا وتسمَّوا بأسماء عربية.

وتتابعت جهود الأمويين لنشر الإسلام في هذه البلاد بعد (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه)، وبخاصة في عهد (هشام بن عبد الملك) (١٠٥ـ ١٢٥هـ)، الذي أسند ولاية (خراسان) و(ما وراء النهر) إلى (أشرس بن عبد الله السلمى)، المسمى (بالكامل) لصلاحه وتقواه، فما ان استقر في (خراسان) حتى شرع في توجيه الدعاة والفقهاء إلى بلاد (ما وراء النهر)؛ لدعوة الناس إلى الإسلام.

وقد مضت حركة نشر الإسلام في بلاد (ما وراء النهر) مطَّردة مزدهرة، بفضل جهود (صالح بن طريف) وأمثاله من أهل الصلاح والتقوى، وإن اعترض ذلك بعض المعوقات التي كانت تأتي في الغالب من بعض الولاة الذين كانوا يفضلون الجباية على الهداية، مخالفين بذلك قواعد الإسلام، غير أن هذه السياسة الخاطئة كانت تجد دائماً من يصححها ويقومها من الخلفاء والولاة.

وقد استاء المسلمون الجدد من أهل بلاد (ما وراء النهر) من دفع الجزية، لا لكونها عبئاً مالياً كبيراً فحسب، بل لإحساسهم بالمهانة من دفعها وهم مسلمون؛ إذ لا جزية على المسلم، ومن ثم تمسكوا بحقهم الشرعي الذي كفله لهم الإسلام، فقاوموا الولاة، ومن أجل ذلك وجدوا استجابة من قمة الدولة لإنصافهم، وتضامناً من إخوانهم العرب المسلمين لمساعدتهم على الحصول على حقهم.

خلاصة القول: أن غالبية الناس في بلاد (ما وراء النهر) تحولت إلى الإسلام، وأصبحت بلادهم جزءاً عزيزاً من العالم الإسلامي، وأهدت إلى

العالم الإسلامي عدداً لا حصر له من العلماء في شتى العلوم الإسلامية، وغدت بعض مدنه مثل (بخارى) و(سمرقند) و(جرجان) من أكبر المراكز الحضارية في العالم الإسلامي وأشهرها.

وقد رسخ الإسلام في تلك المنطقة رسوخاً عميقاً، ظهر أثره في ثبات أهلها أمام موجات الغزو العاتية التي تعرضت لها، مثل غزوات المغول المدمِّرة في القرن (٧هـ = ١٣م)، كما تعرضت لمحنة الحكم الشيوعي الملحد في القرن (١٤هـ = ٢٠م)، الذي حاول بشتى الطرق وبأقسى الأساليب الوحشية محو الإسلام، لكنه فشل فشلاً ذريعاً أمام ثبات المسلمين وإصرارهم على التمسك بعقيدتهم، وبعد انهيار (الاتحاد السوفييتي) سنة (١٤١١هـ = ١٩٩١م) وزوال الحكم الملحد، تنفَّس الناس الصعداء وعادت بلادهم إلى حظيرة العالم الإسلامي.

ولم يكتفِ أهالي تلك المنطقة باعتناق الإسلام، وإنما جنَّدوا أنفسهم للدفاع عنه على حدوده الشرقية عند (الصين) والأتراك الشرقيين، وأصبحت بلادهم معبراً رئيسياً للإسلام إلى (الصين) وغيرها من بلاد شرقي آسيا وجنوبي شرقيها إلى حوض (نهر الفولجا) شمالاً، حيث كانت قوافل الدعاة والتجار تجوب الطرق التجارية بين العالم الإسلامي وتلك البلاد، يدعون إلى الإسلام، وقد وجدوا استجابة طيبة وسريعة.

انتشار الإسلام في (السند):

كان أقليم (السند) مملكة مستقلة عندما فتحه المسلمون في أواخر القرن الأول الهجري بقيادة (محمد بن القاسم الثقفي)، وسادت فيه عدة ديانات كانت هي نفسها السائدة في سائر ممالك شبه القارة الهندية

وولاياتها، مثل: (البرهمية)، و(البوذية).

ويؤكد لنا التاريخ أن الاتصال بين أهل (السند) والمسلمين سبق بزمن طويل قبل فتح بلادهم، وأنهم عرفوا كثيراً عن الإسلام ومبادئه، بل إن بعضهم أسلم مبكراً، يروي (البلاذري) أن كثيرين من أهل (السند) ـ المنبوذين ـ قد أسلموا مبكراً، بعد أن انحازوا إلى المسلمين؛ فراراً من اضطهاد البراهمة، فعندما كان (أبو موسى الأشعري) يفتح إقليم (الأهواز) غربي بلاد فارس، في عهد (عمر ابن الخطاب رضي الله عنه) أرسل له زعيم سندي اسمه (سياة) قائلاً: (إننا قد أحببنا الدخول معكم في دينكم على أن نقاتل معكم عدوكم من العجم) واشترط أن يفرض له ولقومه من العطاء، وأن ينزلوا حيث شاءوا من البلاد، فوافق (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) على ذلك لما كتب له (أبو موسى) يستأذنه. وبعد انتهاء الفتح، نزل هؤلاء (البصرة)، وفرض لهم العطاء، ثم سألوا أي القبائل أقرب إلى رسول الله ﷺ، فقيل لهم: (بنو تميم)، فحالفوهم وخططت لهم الأحياء السكنية.

وقد عمل كثير منهم في بيت المال؛ لخبرتهم في الشؤون المالية، فقد كان في بيت مال (البصرة) منهم في عهد (علي بن أبي طالب رضي الله عنه) أربعون رجلاً، كما عمل بعضهم في الأعمال الحرَّة، وبخاصة في الصرافة، فيروي (الجاحظ): (إنك لا ترى في البصرة صيرفياً إلا وصاحب كيسه ـ أي خزانته ـ سندي).

وكل هذه الشواهد تؤكد اتصال أهل (السند) بالمسلمين قبل فتح بلادهم، ومن الطبيعي أن يتردد بعضهم على وطنه، وينقل للناس هناك أخبار الإسلام والمسلمين، ومعاملتهم الرحيمة ممَّا هيأ قلوبهم للإسلام،

والإقبال عليه بعد الفتح الإسلامي لبلادهم.

فمنذ الخطوات الأولى للفتح بدأت شخصيات كبيرة تعتنق الإسلام، وعندما تقدَّم (محمد بن القاسم) بعد فتح (الديبل)، وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب؛ للدخول في الإسلام فاستجاب له كثيرون.

وكانت هناك أقاليم تدخل في الإسلام جملة واحدة، مثل إقليم (سوسيان)، فقد رُوي في سبب إسلامهم أنهم كانوا قد أرسلوا جاسوساً من عندهم إلى معسكر المسلمين لمعرفة أخبارهم، وأثناء اختفائه حان وقت الصلاة، فقام أحد الجنود وأذَّن بالصلاة بصوت خاشع جميل مؤثر، ثم اصطف الجنود خلف قائدهم (محمد بن القاسم) في صفوف منتظمة، فلما رأى الجاسوس السندي هذا المشهد الرائع تأثر به تأثراً كبيراً، وعاد إلى قومه، وأخبرهم بما رأى، فقالوا: إذا كان العرب متحدين متمسكين بدينهم على هذا النحو وهم في وقت الحرب، فإننا لا يمكننا التغلب عليهم، وقرروا إرسال وفد منهم إلى (محمد بن القاسم)، وانتهى الأمر بإسلامهم جميعاً، وانضمامهم إلى المسلمين، وأقاموا حفل تكريم للقائد المسلم (محمد بن القاسم) الذي هداهم للإسلام.

وكان إقبال أهل (السند) على الإسلام عظيماً على اختلاف طبقاتهم، فأسلم إلى جانب عامة الشعب الحكامُ والقوّاد والوزراء وأمراء المناطق المختلفة، مثل الأمير (كاكة بن جندر) ابن عم الملك (داهر) ملك (السند).

وأدّى سلوك المسلمين السويُّ إلى جذب الناس إلى الإسلام،

وبخاصة سلوك (محمد بن القاسم) الذي اهتم بإقامة المساجد وأداء الشعائر الدينية، فلم يكن يدخل مدينة إلا ويبني فيها مسجداً، وقد تابع خلفاء (محمد بن القاسم) في (السند) سياسته في بناء المساجد.

وقد بلغ قمة النجاح في انتشار الإسلام في (السند) في خلافة (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) (٩٩ـ ١٠١هـ)، الذي كان لسمعته الطيبة أثر عظيم في دخول أعداد كبيرة من أهل (السند) في الإسلام لما دعاهم إلى ذلك، فأسلموا وتسمَّوا بأسماء عربية.

وأصبح هذا الإقليم منذ دخول الإسلام فيه جزءاً عزيزاً في العالم الإسلامي، ولا يزال يمثل قوة رئيسية من قواه؛ فقد شارك في صنع التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، فلولا الإسلام لبقي ذلك الإقليم متروياً في عزلته، دون أن يكون له مثل ذلك الدور الذي قام به في ظل الإسلام، ونختم الحديث عن انتشار الإسلام في (السند) بشهادة واحد من أبنائه هو العلاّمة (أبو الحسن الندوي) الذي يقول: (إن دخول الإسلام إلى بلاد (السند) وبلاد (الهند)، كان فاتحة عصر جديد، عصر علم ونور وحضارة وثقافة.. لم يكن العرب المسلمون من طراز أولئك الغزاة الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها، واعتبروها بقرة حلوباً، أو ناقة ركوباً، يحلبون ضرعها، ويركبون ظهرها، ويجزون صوفها، ثم يتركونها هزيلة عجفاء، ولا يعتبرون أنفسهم كالإسفنج، يتشرب الثروة من مكان، ويصبها في مكان آخر، كما كان شأن الإنجليز في الهند، وفرنسا في الجزائر والمغرب الأقصى، وإيطاليا في طرابلس وبرقة، وهولندا في إندونسيا، لم يكن العرب المسلمون مثل هؤلاء الغزاة المستغلين، بل وهب العرب البلاد التي فتحوها أفضل ما عندهم من عقيدة ورسالة، وأخلاق وسجايا، ومقدرة وكفاية، وتنظيم وإدارة، وأقبلوا عليها بالعقل النابغ، والشعور

الرقيق، والذوق الرفيع، والقلب الولوع، واليد الحاذقة الصناع، فنقلوها من طور البداوة إلى طور الحضارة، ومن عهد الطفولة إلى عهد الشباب الغض، فأمنت بعد خوف، واستقرت بعد اضطراب، وأخذت الأرض زخرفها، وبلغت المدنية أوجها، وتحولت الصحارى الموحشة والأراضي القاحلة إلى مدن زاخرة وأرض خصبة، وتحولت الغابات إلى حدائق ذات بهجة، والأشجار البرية إلى اشجار مثمرة مدنية، ونشأت علوم لا علم للأولين بها، وفنون وأساليب في الحضارة لا عهد لهم بها في الماضى، وانتشرت التجارة، فكأنما وُلدت هذه البلاد في العهد الإسلامي ميلاداً جديداً، ولبست ثوباً قشيبا).أ.هـ.

الجانب الحضاري:

الحضارة الإسلامية في العصر الأموي:

تعني الحضارة عند بعض الباحثين كل نشاط إنساني في الحياة، سواء أكان فكرياً يتمثل في العلوم والفنون والآداب، وما ينتج عن ذلك من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية وإدارية، ومن عادات وتقاليد وأخلاق، أم كان مادياً ملموساً، يتمثل في البناء والتشييد والعمران، كبناء المدن والقرى وتخطيطهما، والتأنق في بناء المساكن والمساجد ودور التعليم والقلاع والحصون، كما تتمثل في العناية بالأوضاع الاقتصادية للبلاد، كبناء السدود والخزانات لتخزين المياه واستخدامها في الزراعة والصناعة، أو في تعبيد الطرق وإقامة المصانع.

وقد عرفت الحضارة الإسلامية في العصر الأموي كل هذه الأنشطة، وهي وإن اشتركت مع غيرها من الحضارة الإنسانية في بعض السمات،

فإنها تتميز عنها بسمات خاصة بها؛ لأن الإسلام هو الذي أنشأها ورعاها وتمثلت فيها قيمه ومبادئه وسماحته ورحمته وآدابه.

وهي كغيرها من الحضارات البشرية أخذت وأعطت وتعلّمت من غيرها، وعلّمت غيرها، وانفتحت على الحضارات كلها بما فيها من ثقافات وأفكار، شعارها: الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق الناس بها(١).

ولقد قامت الحضارة الإسلامية على دعامتين أساسيتين:

الدعامة الأولى:

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكان تأثيرهما في نشوء الحضارة الإسلامية وارتقائها وتألقها من وجهين:

الوجه الأول: حثهما على العلم والتعليم والتفكر في الكون وأسراره، وتسخيره لمنفعة الإنسان، وعدهما طلب العلم فريضة على كل مسلم، ودعوتهما إلى رفع شأن العلم والعلماء، والشواهد على ذلك من كتاب الله وسنة رسول ﷺ كثيرة، من ذلك:

قوله الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر: من ٩].

(١) رواه الترمذي في سننه برقم ٢٦٨٧كتاب: العلم عن رسول الله باب: ماجاء في فضل الفقه على العبادة
ورواه ابن ماجه في سننه برقم٤١٦٩ كتاب: الزهد باب: الحكمة.
واللفظ للترمذي

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾. [المجادلة من ١١].

وقوله تعالى في أول ما نزل من القرآن: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾. [العلق: ١ ـ ٤].

وقوله (ﷺ): «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[(١)].

وقوله (ﷺ) أيضاً: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة»[(٢)].

الوجه الآخر: يتمثل في العلوم الكثيرة التي انبثقت من القرآن والسنة كالتفسير وعلوم القرآن، والفقه والأصول، والحديث وعلومه، والمغازي والسير والتاريخ، واللغة العربية وآدابها وغير ذلك.

الدعامة الأخرى:

وهي دعامة لا يُنكَر دورها في ازدهار الحضارة الإسلامية، وتتمثل في التراث الحضاري الهائل، الذي ورثه المسلمون عن الأمم السابقة في البلاد التي فتحوها، كتراث الحضارة الإغريقية والفارسية والهندية والمصرية القديمة.

وكان من حسن الطالع أن ذلك التراث الحضاري كان موجوداً في

(١) رواه ابن ماجه في سننه برقم ٢٢٤ كتاب: المقدمة باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم.

(٢) رواه مسلم في صحيحيه برقم ٢٦٩٩ كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن.

المناطق التي شملتها الدولة الأموية، فحافظت عليه وصانته من الضياع، وهو ما يُحسب للأمويين، فلولا يقظتهم وسعة أفقهم لضاع من الإنسانية كثير من هذه الكنوز الحضارية، التي أنتجها العقل البشري في القرون السابقة لظهور الإسلام، غير أن الاستفادة الكاملة جاءت في العصر العباسي، حيث بدأت ترجمة العلوم والفنون إلى اللغة العربية، وصُحّحت أخطاؤها، ثم أضاف إليها المسلمون من عبقريتهم الخلاقة ما شهد به علماء الغرب في العصر الحديث.

الإدارة والنظم في العصر الأموي:

أولاً: الإدارة في العصر الأموي:

اتسعت الدولة الإسلامية في العصر الأموي وامتدت حدودها شرقاً من (الصين)، إلى (الأندلس) غرباً، ومن بحر (قزوين) شمالاً إلى (المحيط الهندي) جنوباً، وأصبحت تتكون من الأقسام الإدارية الآتية:

الأقسام الادارية

١ـ **الحجاز**: ويشمل (مكة المكرمة) و(المدينة المنورة) و(الطائف)، وكان الوالي يقيم في (المدينة).

٢ـ **اليمن**: وكانت في معظم الأحيان ولاية مستقلة، يحكمها والٍ يُعيَّن من قبل الخليفة، وأحياناً أخرى كانت تضاف إلى والي (الحجاز)، فيعين عليها والياً من قبله.

٣ـ **العراق**: وتشمل حدودها الإدارية كل ولايات الدولة الفارسية القديمة، وأقاليم (ما وراء النهر) و(السند)، وكان الأمويون في أغلب الأحيان يجعلون (العراق) والشرق الإسلامي كله تحت إدارة والٍ واحد، يُعيِّن من قبله ولاة على بقية الأقاليم، وقد حدث ذلك في عهد (معاوية

بن أبي سفيان)؛ حيث عهد إلى (زياد بن أبي سفيان) بولاية (العراق) والمشرق، وفي عهد (عبد الملك بن مروان) حيث ولَّى (الحجاج بن يوسف الثقفي) أمر المشرق كله.

٤ـ **الجزيرة**: وتشمل ولايات (الموصل) و(أرمينيا)، و(أذربيجان).

٥ـ **الشام**: ولم يكن يعين لها والٍ؛ حيث كانت هي مقر الخلافة الأموية، وكان الخليفة يقوم بهذا الدور.

٦ـ **مصر**: وكان يتبعها (شمالِّي إفريقيا)، ثم أصبحت ولاية مستقلة تقريباً، منذ تولاها (موسى بن نصير) (٨٥ هـ)، وعاصمتها (القيروان).

٧ـ **الأندلس**: وكانت في بداية الفتح الإسلامي لها تتبع ولاية (شمالي إفريقيا)، ثم أصبحت ولاية مستقلة منذ خلافة (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه).

وكان الخلفاء الأمويون يُعينون لكل ولاية من هذه الولايات والياً من قبلهم، وهو بدوره يختار مساعديه وأعوانه، وكانوا يحرصون فيمن يقع عليه اختيارهم للإمارة أن يكون من المعروفين بالحزم وحسن السياسة والقدرة الإدارية، وأن يكون من الأسرة الأموية نفسها، أو من أكثر الرجال ولاءً وإخلاصاً لها.

وتمتَّع هؤلاء الولاة بسلطات واسعة، مكنَّتهم من التصرف بما يرونه محققاً لمصالح الدولة والمجتمع، وكانت هذه السياسة التي اتبعها الأمويون مع ولاتهم مختلفة عن سياسة الخلفاء الراشدين؛ حيث كانت سلطات ولاتهم مقيدَّة، وحرصوا على الفصل بين السلطات السياسية والإدارية والعسكرية، وبين السلطات المالية والقضائية، بمعنى أنهم كانوا

يعينون إلى جانب الوالي ـ الذي يُسمَّى والي الحرب والصلاة ـ والياً لبيت المال يُسمَّى صاحب الخراج، وكان مسؤولاً أمام الخليفة مباشرة، حتى لا تمتد أيدي الولاة إلى أموال الدولة، كما كانوا يعينون القضاة للأقاليم بأنفسهم.

أما في العصر الأموي، فكان الولاة يشرفون غالباً على الشؤون المالية، ولا شك أن أسلوب الخلفاء الراشدين كان أسلم وأقوى حرصاً على المال العام. وإذا شئنا أن نستخدم التعبيرات العصرية في مجال الإدارة قلنا إن إدارة الخلفاء الراشدين كانت مركزية، وكان ذلك مطلوباً في ذلك الوقت؛ حيث كانت الدولة في مرحلة البناء، وكان الخلفاء الراشدون راغبين في الإطلاع على كل شيء بأنفسهم، على حين كان طابع الإدارة الأموية لا مركزياً، نظراً لاتساع الدولة، وبُعد ما بين الولايات وعاصمة الخلافة في (دمشق)، ولايعنى هذا أن الولاة كانوا في العصر الأموي يفعلون ما يشاءون دون رقابة أو محاسبة من الخلفاء الذين لم يكونوا يترددون في عزل أي والٍ مهما تكن درجة قرابته منهم إذا ثبت أنه أخل بواجبات وظيفته، أو لم يقم بما هو مكلف به على النحو الأكمل.

وكانت دقة الأمويين في اختيار ولاتهم هي التي مكنتهم من حكم هذه الدولة العملاقة وإدارتها وبسط الأمن والنظام في ربوعها الممتدة الأطراف، التي ضمت شعوباً مختلفة الأجناس واللغات والثقافات والعادات والتقاليد، ومن ثم فإن صهر هذه الشعوب في بوتقة واحدة، وإخضاعها لنظام واحد، لم يكن أمراً سهلاً، في وقت كانت فيه الخيل هي أسرع وسيلة للمواصلات.

وكان نجاح الأمويين في إدارة الدولة الإسلامية بوساطة رجالهم ـ ومعظمهم كانوا من أفذاذ الرجال ـ دليلاً على عبقرية إدارية، وقدرة فائقة في فن الحكم وإدارة البلاد، ومهارة في سياسة الناس، ولا يقلل من ذلك أخطاؤهم واتهامات ناقديهم.

أبرز الولاة في العصر الأموي:

حفل العصر الأموي بالكثير من الأسماء اللامعة التي تألقت في فن الحكم والإدارة، ومن أشهر تلك الأسماء (عمرو بن العاص)، و(المغيرة بن شعبة)، و(عتبة بن أبى سفيان)، و(مروان بن الحكم)، (ومسلمة بن مخلد الأنصاري)، و(عقبة بن نافع)، و(عبد العزيز بن مروان)، و(المهلب بن أبي صفرة) وأولاده، و(زهير بن قيس البلوي)، و(حسان بن النعمان الغساني)، و(مسلمة بن عبد الملك)، و(قتيبة بن مسلم الباهلي)، و(محمد بن القاسم الثقفي)، و(موسى بن نصير)، وابنه (عبد العزيز)، و(طارق بن زياد)، و(قرة بن شريك)، و(عبد الحميد بن عبد الرحمن)، و(الجراح بن عبد الله الحكمي)، و(عدى بن أرطأة)، و(السمح بن مالك الخولاني).

كما برز (عمر بن هبيرة)، و(بشر بن صفوان)، و(العباس بن الوليد)، و(خالد بن عبد الله القسري)، وأخوه (أسد بن عبد الله)، و(يوسف بن عمر الثقفي)، و(الجنيد بن عبد الرحمن)، و(أشرس بن عبد الله السلمي)، و(مروان بن محمد بن مروان)، و(يزيد بن عمر بن هبيرة)، و(نصر بن سيار).

ثانياً: النظم في العصر الأموي:

كان من الطبيعي عندما قامت الدولة الأموية أن يتوسَّع الأمويون في إنشاء الأجهزة الإدارية والدواوين؛ لملاءمة تطور الحياة، واتساع مساحة الدولة الإسلامية المتزايد، وهذه الدواوين تقوم بالأعمال والاختصاصات التي تقوم بها الوزارات في الدول المعاصرة، فديوان الجند الذي أنشأه (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) كان يقوم بالعمل الذي تقوم به وزارة الدفاع حالياً، ففيه تُدوَّن أسماء الجند وأعطياتهم ـ رواتبهم ـ ورتبهم العسكرية، وكانت الأسماء تُدوَّن حسب القبائل، حتى تتميز كل قبيلة من غيرها، كما يقول (الماوردي)، (فكأن كل قبيلة كانت تمثل فرقة من فرق الجيش).

وإلى جانب (ديوان الجند) نشأ (ديوان العطاء)، وهو المختص بالمخصصات المالية التي كانت تدفعها الدولة للناس، و(ديوان الخراج) وهو يشبه وزارة المالية في الوقت الحاضر، فكل موارد الدولة المالية كانت تدخل إلى هذا الديوان، مثل غنائم الفتوحات، وخراج الأرض، والزكاة، والعشور، وهي ضرائب كانت تُوخَذ من التجار الذين يدخلون بتجارتهم إلى البلاد الإسلامية، وهي شبيهة برسوم الجمارك في الوقت الحاضر، وكانت هذه الضريبة على ثلاثة أنواع تبعاً لنوعية التجار، فالتجار المسلمون يؤخذ منهم ربع عشر تجارتهم، والتجار من أهل الذمة من مواطني الدولة الإسلامية يؤخذ منهم نصف العشر، أما التجار من الكفار الذين يدخلون البلاد الإسلامية بتجارتهم، فيؤخذ منهم العشر.

وكانت حصيلة تلك الأموال تدخل (ديوان الخراج)، ويُنْفَق منها على الجند، والموظفين، والمرافق العامة للدولة، وهذا الديوان كان موجوداً من عصر الراشدين، لكنه تطوَّر واتسع نطاق عمله باتساع الدولة في العصر الأموي.

وهناك دواوين أخرى أنشأها الأمويون أنفسهم، منها:

ديوان البريد:

وأصل هذا الديوان في الواقع كان موجوداً منذ عهد النبي (ﷺ)، فقد بعث كثيراً من الرسائل إلى الملوك الأمراء المعاصرين له، يدعوهم إلى الإسلام، وحمل هذه الرسائل سفراء ومبعوثون منِ قبله، لكن (معاوية بن أبي سفيان) أنشأ لهذا النوع من العمل ديواناً خاصاً، وهو الجديد في ذلك الأمر، وجعل له موظفين معينين، يقومون على العمل به، وقام (ديوان البريد) بمهمتين:

الأولى: نقل الرسائل من دار الخلافة وإليها، وكان بعضها رسائل داخلية، وهي المتبادلة بين الخليفة وولاة الأقاليم وكبار الموظفين، وبعضها الآخر رسائل خارجية وهي التي يتبادلها الخليفة مع ملوك الدول الأجنبية وزعمائها.

والأخرى: مراقبة أعمال الولاة وكبار الموظفين، ومتابعة سلوكهم وأسلوبهم في إدارة ولاياتهم، وموافاة الخلافة بتقارير منتظمة؛ حتى يكون الخليفة على علم تام بكل ما يجري في كل الولايات.

وكانت تلك المهمة جليلة الشأن، تُطْلع الخليفة على أي خلل أو قصور في الإدارة، فيسارع إلى تدارك ذلك، ولذا اهتم الأمويون بديوان البريد اهتماماً عظيماً لأثره البالغ في حُسن سير الإدارة ومراقبة الموظفين.

ديوان الخاتم:

وهو يختص بحفظ نسخة من المراسلات التي كانت تدور بين الخليفة وولاته وكبار موظفيه في الداخل، أو بينه وبين غيره من الحكام

الأجانب، بعد ختمها بخاتم خاص، وهو بذلك أشبه ما يكون بإدارة الأرشيف في النظم الإدارية الحديثة، وكانت النسخة المرسَلة تُطوى وتغلق بالشمع، حتى لا يمكن فتحها والإطلاع على محتوياتها إلا عند الضرورة، وقد أنشأ هذا الديوان (معاوية بن أبى سفيان)؛ لمنع التزوير والتلاعب في مراسلات الدولة.

وكان ختم الرسائل بخاتم خاص معروفاً في الدولة الإسلامية منذ عهد النبي ﷺ، فعندما عزم النبي ﷺ على إرسال رسائله إلى الملوك والأمراء المعاصرين له، لدعوتهم إلى الإسلام، قال له بعض أصحابه: إن الأعاجم - يقصدون (كسرى) و(قيصر) - لا يقبلون رسالة إلا إذا كانت مختومة؛ فاتخذ خاتماً من فضة لختم رسائله، نقش عليه: محمد رسول الله، واتخذ له حاملاً خاصاً، سُمي (حامل خاتم النبي)، وكان اسمه (معيقب بن أبي فاطمة الدوسي)، وظل الخلفاء الراشدون يستخدمونه في ختم رسائلهم حتى سقط من يد (عثمان بن عفان) - رضي الله عنه - في بئر (أريس)، فاتخذ خاتماً آخر صنع على مثاله، لكن (معاوية بن أبى سفيان) طوَّر تلك البدايات طبقاً لمقتضيات العصر، واتساع رقعة الدولة، وكثرة المراسلات المتبادلة.

ديوان الرسائل:

ووظيفته صياغة الكتب والرسائل والعهود التي كانت تصدر عن دار الخلافة، سواء إلى الولاة والعمال في الداخل، أو إلى الدول الأجنبية، كما يتلقى الرسائل الآتية من تلك الجهات أيضاً، وعرضها على الخليفة.

وكان كُتَّاب ذلك الديوان يُختارون بعناية، من بين المشهورين بالبلاغة

والفصاحة، والمعروفين بالتبحر في اللغة العربية وآدابها وعلوم الشريعة الإسلامية، والمتصفين بالمروءة والأخلاق الحميدة، كما يُراعى أن يكونوا من أرفع الناس حسباً ونسباً.

وقد حفل العصر الأموي بأفذاذ الكتّاب كان أشهرهم على الإطلاق (عبد الحميد بن يحيى)، كاتب الخليفة (مروان بن محمد)، آخر خلفاء (بني أمية)، وصاحب الرسالة المشهورة التي وجهها إلى الكُتّاب ناصحاً ومعلماً، وهي آية من آيات الفصاحة والبلاغة، وضمّنَها الشروط التي يجب أن توجد في من يقوم بتلك المهمة الجليلة بين يدى الخلفاء والأمراء.

واختص (ديوان الرسائل) ـ إلى ما سبق ـ بقيامه بالعلاقات الخارجية مع الدول الأجنبية، وإشرافه على الوفود التي كانت تأتى من الخارج، لعقد معاهدة أو تبادل منافع، وتعهدهم في بيوت الضيافة المعدة لذلك، وتعيين المرافقين لهم ـ حسب أهميتهم ـ طوال مدة إقامتهم، وإطلاعهم على المعالم والأماكن التي تستحق الزيارة، كما كان يشرف على الوفود التي كانت ترسلها الدولة الأموية إلى الخارج، وإعدادها الإعداد الكافي، وهذا يعني أن (ديوان الرسائل) كان يقوم بما يشبه وظيفة وزارة الخارجية في الحكومة المعاصرة.

ديوان العمال:

ويختص بتسجيل أسماء الموظفين المدنيين في الدولة، وترتيب أعمالهم ووظائفهم، وتحديد رواتبهم، وقد سبقت الإشارة إلى أن سجلات ذلك الديوان في (البصرة) وحدها في ولاية (عبيد الله بن زياد)

(٥٥ـ ٦٤هـ)، كانت تحوي مائة وأربعين ألف موظف مدني.

تعريب دواوين الخراج:

كانت كل الدواوين التي سبق الحديث عنها يجرى العمل فيها منذ نشأتها باللغة العربية، ما عدا (ديوان الخراج) الذي كان يستخدم لغات أجنبية، كالفارسية في بلاد فارس و(العراق)، واليونانية في (مصر) و(الشام).

وظل هذا الوضع مستمراً حتى خلافة (عبد الملك بن مروان) (٦٥ـ ٨٦هـ)، الذي أخذ على عاتقه تعريب دواوين الخراج؛ لأن الضرورة التي دعت إلى استخدام اللغات غير العربية فيها قد زالت، بوجود عدد كافٍ من الموظفين العرب الذين يجيدون العمل في تلك الدواوين، واستعد (عبد الملك) لهذا العمل استعداداً جيِّداً، باعداد فريق كبير من العاملين العرب، المدربين للعمل في دواوين الخراج، المجيدين للفارسية واليونانية؛ ليتسنَّى لهم ترجمة أعمال تلك الدواوين إلى العربية، ولم يكن ذلك العمل سهلاً يسيراً، وإنما تطلَّب جهداً وعملاً دائباً.

وأول ديوان عُرِّب هو (ديوان الخراج) المركزي في (دمشق) عاصمة الخلافة الأموية وحاضرتها، وأشرف على ذلك العمل (سليمان بن سعد الخشني) الذي كان يُعد من أبرز الكتاب في عهد (عبد الملك)، وشاركه عدد كبير من الموظفين، وقد نجح (سليمان) في إنجاز ذلك العمل في سنة كاملة، وكافأة الخليفة على ذلك بخراج إقليم الأردن كله لمدة عام، ممَّا يدل على أهمية ذلك العمل واهتمام الخلافة بإنجازه في أقصر وقت.

ثم تكفَّل (الحجاج بن يوسف الثقفي) والي (العراق) بنقل (ديوان

الخراج) فيها، وفي بقية الأجزاء الشرقية من الدولة الإسلامية إلى اللغة العربية، وعهد بتلك المهمة إلى كاتبه (صالح بن عبد الرحمن)، وأشرف (عبد الله بن عبد الملك بن مروان) والي (مصر) (٨٥ـ ٩٠ هـ) على نقل ديوان خراجها من اليونانية إلى العربية.

واستمرت عملية تعريب دواوين الخراج نحو نصف قرن من الزمان، وكان آخر ديوان خراج تم تعريبه هو ديوان (خراسان)، على يد (نصر بن سيار) سنة (١٢٤ هـ)، في خلافة (هشام بن عبد الملك)، وبذلك أصبحت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة السائدة في كل المعاملات المالية في الدولة الإسلامية.

ولم يقتصر أثر تعريب الدواوين على النواحي المالية والإدارية، وإنما كان له أثر عظيم في انتشار الإسلام واللغة العربية في البلاد المفتوحة، لأن أبناء تلك البلاد أقبلوا على تعلُّم العربية؛ ليبقُوا في وظائفهم في الديوان، ثم قادتهم العربية إلى معرفة الإسلام فأقبلوا على اعتناقه.

وكما قام (عبد الملك بن مروان) بتعريب دواوين الخراج، أقدم على خطوة أخرى لا تقل أهمية عن تعريب الدواوين، وهي تعريب النقد المتداول في الدولة، وكانت الدولة الإسلامية إلى عهده تستخدم الدنانير البيزنطية، فقضى على هذا وأمر بإنشاء دور لصك النقود في (دمشق) وغيرها من المدن الإسلامية، لصك العملات التي تحمل شعارات إسلامية، وألغى تداول العملات غير الإسلامية، وبهذا صبغ الدولة كلها، بأجهزتها ودواوينها بالصبغة العربية الإسلامية.

الحاجب:

(وظيفة الحاجب) من الوظائف المهمة في الدولة الإسلامية، وهي وثيقة الصلة بدار الخلافة، واختص صاحبها بترتيب مواعيد الخليفة، وعرض الأعمال عليه، وتنظيم دخول القادمين لمقابلته من كبار رجال الدولة والأمراء والوزراء والقادة، فهي أشبه بوظيفة (رئيس ديوان رئاسة الجمهورية) في النظم الجمهورية المعاصرة، أو وظيفة (رئيس الديوان الملكي) في النظم الملكية.

وقد حرص خلفاء (بني أمية) أن يكون حُجَّابهم من أهل بيتهم، أو من أقرب الناس إليهم من أهل الشرف والحسب والنسب، ومن ذوي الفقه والرأي، والثقافة العالية، والعلم الغزير؛ لأنهم عدُّو (الحاجب) وجههم الذي يطالعون به الناس، ولسانهم الذي يتحدثون به إليهم، كما حرصوا أن يكون حجَّاب ولاتهم في الأقاليم على المستوى نفسه.

القضاء في العصر الأموي:

كان رسول الله ﷺ يتولّى القضاء بنفسه في (المدينة)، ثم أذن لبعض أصحابه بالقضاء بين الناس، لما انتشر أمر الدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية، وكثرت القضايا والخصومات، وكانوا يقضون على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص من كتاب الله أو سنة رسوله، ومن الصحابة الذين كانوا يتولون القضاء في حياة النبي ﷺ (عمر بن الخطاب) و(علي بن أبي طالب)، و(معاذ بن جبل)، و(عبد الله بن مسعود)، رضي الله عنهم وغيرهم.

ولما بويع (أبو بكر الصديق رضي الله عنه) بالخلافة، وانشغل بمحاربة

المرتدين وتسيير الجيوش لفتح (العراق) و(الشام)، وكثرت عليه أعباء الدولة؛ خصَّ (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) بالقضاء في (المدينة).

وفي عهد (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) اتسعت الدولة اتساعاً كبيراً، فعيَّن قضاة من قبله على الولايات، فعيَّن (كعب بن سور) على قضاء (البصرة)، و(شُريحاً) على قضاء (الكوفة)، ومن أشهر من تولوا القضاء في عهد (عمر) (أبو موسى الأشعري)، الذي كتب له (عمر) رسالة مشهورة، بين له فيها أهم الأسس والمبادىء التي ينبغي للقاضي أن يسير عليها، واستمر (عثمان) و(علي بن أبي طالب رضي الله عنهم) في تعيين القضاة من قبلهم على الولايات.

وسار الأمويون على سنة الراشدين في تعيين القضاة على الأقاليم، وحرصوا على أن يكون قضاتهم من أهل الاجتهاد والورع والتقى، ولم يتدخلوا في عملهم، وخضعوا لأحكامهم مثل غيرهم من عامة الناس.

وقد اتسعت دائرة عمل القضاة في العصر الأموي، نظراً إلى اتساع مساحة الدولة، وكثرة المشاكل والمنازعات بين الناس، مما أدَّى إلى اتساع دائرة الفقه الإسلامي، لأن كثيراً من أحكام القضاة في تلك الفترة أصبحت قواعد فقهية عند تدوين الفقه بعد ذلك، وكان بعض القضاة يسجل أحكامه في القضايا التي يفصل فيها، وأول من فعل ذلك قاضي (مصر) (سليم التجيبي) في عهد (معاوية بن أبى سفيان).

ومن أشهر القضاة في العصر الأموي (أبو إدريس الخولاني)، و(عبد الرحمن بن حجيرة)، و(أبو بردة بن أبي موسى الأشعرى)، و(عبد الرحمن بن أذينة)، و(هشام بن هبيرة)، و(عامر بن شراحبيل الشعبي)، و(عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي)، وكثيرون غيرهم.

قضاء المظالم:

استُحدث هذا النظام القضائي في العصر الأموي، وهو نوع من أنواع القضاء المستعجل، الذي يتطلب البتّ السريع في القضايا التي لا تحتمل الانتظار، ويبدو أن الذي أدّى إلى استحداث هذا النوع من القضاء هو حدوث خصومات بين أطراف غير متكافئة، كأن يكون أحد طرفي الخصومة أميراً أو والياً أو من عِلْية القوم، الأمر الذي يتطلب حزماً وشدة، لردع الخصم المتعالي.

ولم يُعمَل بهذا النوع من القضاء في عهد النبي ﷺ ولا في عصر الخلفاء الراشدين، لأن الناس كانوا في الغالب لا يتعالى أحدهم على خصمه، على حين تغيَّر الحال بعضُ التغيُّر في العصر الأموي، ولم يعد الوازع الديني كما كان في العهد النبوي وعصر الراشدين، ولم يعد القضاء العادي كافياً للفصل في جميع المنازعات، لمجاهرة بعض الناس بالظلم والتعالي على الخصوم، فدعت الضرورة إلى إنشاء هذا النوع المسمى بقضاء المظالم، وكان له ديوان يعرف بديوان المظالم، وكانت سلطته أعلى من سلطة القاضي.

ونظراً إلى أهمية القضاء وما يتطلبه من الحزم والهيبة، فقد كان بعض خلفاء (بنى أمية) يتولونه بأنفسهم، وأول من جلس منهم لقضاء المظالم هو (عبد الملك بن مروان).

وكما كان قاضي المظالم يقضي بين الأفراد عامة، فإنه كان يقضي بين الأفراد وكبار المسؤولين، الذين يحيدون عن طريق العدل والإنصاف من الولاة وعمال الخراج.

الحسبة:

(الحسبة) نظام إسلامي يقوم بالإشراف على المرافق العامة، ومنع أي انحراف، وعقاب المذنبين، وهي وظيفة دينية شبه قضائية، عرفها التاريخ الإسلامي من بدايته.

تقوم على فكرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والأصل في هذا النظام الإسلامي هو قيام الناس جميعاً بهذا الواجب الذي هو من فروض الكفاية، لكن الدولة الإسلامية لم تدع ذلك الأمر للأفراد؛ خوفاً من حدوث فتن ومشاحنات، وإنما نظَّمته، وجعلته وظيفة خاصة لها مسؤول، يعاونه عدد كبير من الناس.

ولا يعني تنظيم الدولة لوظيفة (الحسبة) منع الأفراد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل واجبهم القيام بهذا، بشرط أن يكون القائم به عالماً فقيهاً، وألا يؤدي أمره بالمعروف إلى منكر، ونهية عن المنكر إلى منكر أشد، وأن يكون عمله عن طريق النصيحة. ولما لم يكن من طبيعة الناس كلهم الاستجابة إلى النصح بالتي هي أحسن، فقد نشأت وظيفة (المحتسب)، واشترط في شاغلها أن يكون من أهل الهيبة، ليضرب بقوة على أيدى العابثين بأمن المجتمع في غذائه وصناعته وتجارته، وعلى من لا يراعي أصول الشريعة ومبادئها في سلوكه، ويضايق الناس بأقواله وأفعاله.

ولم يقتصر عمل (المحتسب) على ضبط سلوك العامة، ومراقبة

أعمالهم، وإنما شمل كبار موظفي الدولة، لحملهم على أداء عملهم على أفضل ما يكون، ومنعهم من الفساد والتعدي على الناس وقبول الرشوة، وغير ذلك. وبدأ نظام (الحسبة) مع بداية الدولة الإسلامية، مثل غيره من النظم التي سبق الحديث عن بعضها، فقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ كان أول من باشر عمل (المتحسب) بنفسه، مما يدل على أهميته، فروى (أبو هريرة) ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجل يبيع القمح في سوق (المدينة) أمامه صبرة ـ كومة كبيرة ـ فأدخل فيها يده الشريفة، فنالت بللاً، فقال: (يا صاحب الطعام ماهذا؟). قال: اصابته السماء يا رسول الله. فقال ﷺ: (أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ من غشَّ فليس منَّا).[1]

وكان النبي ﷺ يعين من الصحابة من يقوم بهذا العمل ويراقب الأسواق لمنع الغش في كل شيء فكلَّف (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) بمراقبة سوق (المدينة المنورة)، وعين (سعيد بن العاص) لمراقبة سوق (مكة) بعد فتحها.

واستمر الخلفاء الراشدون يباشرون عمل (المحتسب) بأنفسهم أحياناً، وينيبون غيرهم للقيام به في أحيان أخرى. ولما اتسعت الدولة الإسلامية في عصر (بني أمية)، عجز الخلفاء عن القيام بعمل (المحتسب) بأنفسهم؛ لانشغالهم بمهام كثيرة سياسية وإدارية وعسكرية، وخصصوا لهذا العمل من يقوم به، وأصبح نظام (الحسبة) ووظيفة (المحتسب) من أهم النظم

(١) رواه الترمذي برقم١٣١٥كتاب: البيوع عن رسول الله باب: ماجاء في كراهية الغش في البيوع.
ورواه مسلم برقم١٠٢ كتاب: الإيمان باب: قول النبي من غشنا فليس منا.

الإسلامية التي تعمل على سلامة المجتمع، وتنقيته من كل المفاسد.

وقد امتد عمل (المحتسب) إلى كل مجالات الحياة تقريباً، وقد لَخص (ابن خلدون) في مقدمته اختصاصات (المحتسب) فقال: (ويبحث ـ المحتسب ـ عن المنكرات، ويعزِّر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل ـ لئلا تغرق السفينة بمن فيها ـ والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقَّع من ضررها على السابلة ـ أي: المارة في الطريق ـ والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ ـ أي المبالغة ـ في ضربهم للصبيان المتعلمين، ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك، ويرفع إليه، وليس له الحكم في الدعاوي مطلقاً، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها، وفي المكاييل والموازين، وله ايضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بيِّنه، ولا إنفاذ حكم، وكأنها أحكام يتَّنزه القاضي عنها لعمومها، وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء).

وإذا نظرنا إلى عمل (المحتسب) الذي هدفه هو راحة الناس في ضوء النظم الحكومية المعاصرة نجده موزعاً بين العديد من الوزارات والهيئات، مثل وزارة التموين، والصحة، والصناعة، والتعليم، والزراعة، والداخلية، والنيابة العامة، ومصلحة الدمغة، والموازين، والمرافق بمختلف أنواعها.

الشرطة:

يُعدُّ جهاز (الشرطة) من أقدم الأجهزة في الدولة الإسلامية، فقد عُرف منذ عهد النبي ﷺ، وكان له (صاحب شرطة) - أي رئيس لها - فعن (أنس بن مالك رضي الله عنه) أنه قال: (كان قيس بن سعد بن عبادة من النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير).

ومن الذين عُرفوا بالقيام بوظيفة الشرطي في (المدينة) في عهد الرسول ﷺ: (سعد بن أبي وقاص) و(بديل بن ورقاء)، و(أوس بن ثابت بن عرابة)، و(رافع بن خديج).

واستمر الخلفاء الراشدون في الاستعانة ببعض الصحابة للقيام بعمل الشرطي؛ استتباباً للأمن، وحفظاً للنظام، وتعقباً للجناة والمفسدين في الأرض، وتنفيذاً للأحكام والحدود التي يحكم بها القضاة.

وقد ازدادت أهمية جهاز (الشرطة) في الدولة الأموية، نظراً إلى الظروف التي كانت تحيط بها، وكثرة الخارجين عليها والثائرين ضدها، فتوسعت في استخدام (الشرطة)، حتى أصبح جهازاً من أكبر أجهزة الدولة، قادراً على حفظ الأمن وتطهير البلاد من عناصر الفساد والعبث بالنظام العام للمجتمع.

وحرص الأمويون على اختيار رجال شرطتهم من أهل الشرف والبأس الشديد، والعفة والمروءة والحزم، وأعطوا (صاحب الشرطة) الحرية التامة في اختيار معاونيه، ليؤدوا مهمتهم على الوجه الأكمل، فُيروى عن (الحجَّاج بن يوسف الثقفي) والي(العراق) و(المشرق الإسلامي) أنه قال: (دلوني على رجل للشرطة)، فقيل له: (أي الرجال تريد؟) قال: (أريده

دائم العبوس ـ أي جاداً في ملامحه ـ طويل الجلوس، سميق الأمانة، أعجف الخيانة ـ أي لا يخون ـ) فقيل له: (عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي)، فأرسل إليه يستعمله على (الشرطة)، فقال: (لست أقبلها إلا أن تكفيني عيالك وولدك وحاشيتك)، فقال (الحجاج): (يا غلام نادِ في الناس: من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت منه الذمة).

ويُعلّق (الشعبي) راوي هذا الخبر بقوله: (فو الله ما رأيتُ صاحب شرطة قط مثله، كان لا يحبس إلى في دين ـ أي: من أجل مخالفة لتعاليم الدين ـ وكان إذا أُتي برجل قد نقَّب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره، وإذا أُتى بنبَّاش حفر له قبراً فدفنه فيه، وإذا أُتي برجل قاتل بحديدة أو شهر سلاحاً قطع يده، وإذا أُتي برجل قد أحرق على قوم منزلهم أحرقه.. فكان ربما أقام أربعين ليلة لا يؤتى بأحد ـ لخوف الناس منه لشدته وهيبته ـ فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة).

وبعد هذا الحديث الموجز عن النظم والإدارة في العصر الأموي يمكن القول: إن إدارة الأمويين للدولة الإسلامية كانت إدارة حسنة بصفة عامة، تقوم على أسس ثابتة، تبغى الصالح العام، وإشاعة الأمن والاستقرار في الدولة المترامية الأطراف، وإن شاب ذلك بعض القصور والأخطاء، وحسب الأمويين أنهم لم يكفُّوا عن تطوير أجهزة الدولة ودواوينها التي كانت موجودة قبلهم، واستحدثوا غيرها حين دعت الضرورة إلى ذلك، وأنهم بذلوا جهداً في التدقيق في اختيار الولاة والعمال والموظفين، وأحسنوا مراقبتهم ومتابعتهم، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير.

طبقات المجتمع:

من يتأمل حياة المجتمع الإسلامي في العصر الأموي يرى أنه يمكن تقسيمه إلى خمس طبقات:

الطبقة الأولى: الخلفاء وأبناؤهم وأفراد أسرتهم، وهؤلاء بحكم وضعهم أصبحوا في منزلة لا يدانيهم فيها أحد.

الطبقة الثانية: كبار الولاة والقادة وغيرهم من كُتَّاب الدواوين.

الطبقة الثالثة: العلماء وإن اختلفت أجناسهم، وهذه الطبقة وإن كان ترتيبها المرتبة الثالثة من الناحية الاجتماعية، فإن كثيرين منها كانوا يحظون بحب الناس وتقديرهم ربما بأكثر مما يحظى به الخلفاء والأمراء.

الطبقة الرابعة: كبار الأثرياء والتجار ورؤساء العشائر.

الطبقة الخامسة: عامة الناس من الزراع والحرفيين.

تطور معيشة الخلفاء الأمويين ومظهرهم:

لم يستطع خلفاء (بني أمية) المحافظة على نمط حياة الخلفاء الراشدين، من بساطة وزهد في المأكل والملبس والمسكن، ولم تطقه نفوسهم، حتى أن (معاوية بن أبى سفيان) صرَّح بعدم قدرته على مجاراة سلوكهم، وهو مؤسس الدولة، وكاتب الوحي لرسول الله ﷺ، وقال: (لقد رمت نفسي على عمل ابن أبي قحافة ـ أبى بكر الصديق ـ فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه، وأردتها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشد نفوراً وأعظم هرباً من ذلك، وحاولتها على مثل عثمان بأبت عليَّ، وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يُدرِك فضلهم أحد ممن

بعدهم؟ رحمة الله ورضوانه عليهم، غير أني سلكتُ بها طريقاً لي فيه منفعة ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدوني خيركم، فأنا خير لكم).

وعلى هذا عاش (معاوية) في (دمشق) التي اتخذها عاصمة لدولته عيشة فيها توسع في المأكل والمشرب والملبس والمسكن، والحق أن (معاوية) كان يعيش وهو أمير على الشام حياة نعمة وسعة إذا ما قورنت بحياة الخلفاء الراشدين، بل إن (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) لم ينكر عليه مثل هذه الحياة، ولم ينهه عنها، ففي إحدى زيارات (عمر رضي الله عنه) إلى الشام لقيه أميرها (معاوية) وهو في أبهة الملك وزيّه، فاستنكر (عمر رضي الله عنه) ذلك في البداية، وقال: (أكسرويه يا معاوية؟)، يعني أتتشبَّه بكسرى؟، فقال (معاوية): (يا أمير المؤمنين إنَّا في ثغر تجاه العدو ـ يقصد الدولة البيزنطية ـ وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة)، فسكت (عمر رضي الله عنه) ولم يخطِّئه لما وجد حجته قوية.

وإذا كان (معاوية) توسَّع في معيشته وهو أمير، فليس بغريب بعد أن أصبح خليفة أن تحف به مظاهر الملك، من اتخاذ الحراس والشرطة، والحجاب، وإرخاء الستور، وسكنى القصور ذات الحدائق الغنَّاء في عاصمته (دمشق) التي تُعد من أقدم مدن العالم، وكانت عامرة بالمباني الفاخرة والحدائق والبساتين، بل إنه اتخذ مقصورة ليصلي فيها منعزلاً عن الناس بعد تعرضه لمحاولة اغتيال سنة (٤٠هـ).

ونظراً لهذه الحياة المترفة الباذخة قيل عن (معاوية): إنه كان ملكاً لا خليفة، بل رُوي عنه نفسه أنه قال: (أنا أول الملوك)، ووصفه (ابن

عباس رضي الله عنه) بأنه كان ملكاً، وقال عنه (ابن تيمية): (فلم يكن من ملوك المسلمين ملك خيراً من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيراً منهم في زمان معاوية، إذا نُسبت أيامه إلى أيام من بعده، أمَّا إذا نُسبت إلى أيام أبى بكر وعمر ظهر التفاضل)، كما يُروى عن رسول الله ﷺ ما يؤكد أن حكم (معاوية) كان بداية الملك في الإسلام، فقال: (إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة، ثم يكون رحمة وخلافة، ثم كائن ملكاً عضوضاً). ابن كثير.

وقال: (الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك)[1].

ولا يظنن أحد أن وصف (معاوية بن أبى سفيان) ـ رضي الله عنه ـ بالملك فيه انتقاص من قدره؛ لأن الملك لا يُذَم لذاته، وإنما لما يحفّ به من المظالم والطغيان، أمَّا إذا قام على الحق وبالحق فلا يُذَم، ولو كان الملك مذموماً في ذاته ما تمنَّاه (سليمان بن داود) ـ عليهما السلام ـ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾.

[ص: من ٣٥].

والإسلام لا يهمه ما يُلقَّب به الحاكم المسلم، خليفةً كان أو ملكاً، وإنما يعنيه أن يحكم بشريعة الله وسنة رسوله.

إنَّ حياة الترف التي عاش فيها خلفاء الدولة الأموية، كانت من مقتضيات التطور الاجتماعي الطبيعي في حياة الأمة، بعد أن كثرت

(١) رواه الترمذي في سننه برقم٢٢٢٦كتاب: الفتن عن رسول الله ﷺ باب: ماجاء في الخلافة وفي رواية لأبي داود سننه برقم ٤٦٤٧ كتاب السنة باب: في الخلفاء: قال رسول الله ﷺ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله الملك من يشاء أو ملّكه من يشاء».

الأموال في أيديهم كثرة هائلة من الغنائم، وكان من الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى الميل إلى حياة الترف، ولم يكن في وسع أحد أن يوقف ذلك الميل، بل إن (ابن خلدون) رأى أن الترف في أول نشوء الدولة كان مطلوباً؛ لأنه يزيدها قوة على قوتها، وعقد لذلك فصلاً في مقدمته ـ المعروفة ـ بعنوان: (فصل في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها).

والمتأمل لتاريخ الدولة الأموية يتفق مع (ابن خلدون) في هذا التعليل، لأن (معاوية بن أبى سفيان) ومن تلاه من أوائل خلفاء الدولة استخدموا الأموال في تأليف الناس حولهم واستكثروا من الذرية والموالى والصنائع ـ الأنصار والأتباع ـ لترسيخ قواعد الدولة حتى بلغت أوج قوتها، وفي ذلك يقول (ابن طباطبا) بعد أن وصف (معاوية) بالحلم وحسن السياسة والتدبير للملك: (وكان كريماً باذلاً للمال، محباً للرياسة، شغوفاً بها، كان يفضل على أشراف رعيته كثيراً، فلا يزال أشراف قريش، مثل: عبد الله بن العباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر الطيار، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبى بكر، وأبان ابن عثمان وناس من آل أبى طالب ـ رضي الله عنهم ـ يفدون عليه بدمشق، فيُكرم مثواهم، ويُحسن قراهم، ويقضى حوائجهم، بمثل هذه السياسة صار خليفةً للعالم الإسلامي وخضع له أبناء المهاجرين والأنصار، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة).

وسار (يزيد بن معاوية) على خطى أبيه في الإحسان إلى الناس واستمالتهم بالأموال، وكذلك فعل (مروان بن الحكم) وابنه (عبد الملك) وأولاده.

تحري بني أمية للحق والعدل:

حرض خلفاء الدولة الأموية الأوائل وأمراؤها على الالتزام بمقررات الإسلام في جمع الأموال، والإذعان لكلمة الحق مهما يكن قائلها، فحين أراد (معاوية بن أبى سفيان) أن يزيد على أهل (مصر) في مقدار الجزية التي فُرضت عليهم عند أول الفتح الإسلامي لبلادهم، إذا بعامله على بيت المال ـ (وردان) ـ يقول له: (كيف تزيد عليهم يا أمير المؤمنين وفي عهدهم ألا يُزاد عليهم) فُيذعن الخليفة لقول عامله ويكف عن الزيادة، وعندما أراد (عبد العزيز بن مروان) والي (مصر) (٦٥ـ ٨٥هـ) أن يأخذ الجزية من المسلمين الجدد عارضه القاضي (ابن حجيرة) قائلاً له: (أُعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سنَّ ذلك بمصر) فتركهم.

وظلت معارضة العلماء قوية لكل من تُسَّول له نفسه الخروج على مبادىء الإسلام حتى جاء (عمر بن عبد العزيز) (٩٩ـ ١٠١هـ) فقضى تماماً على كل سلوك شاذ، وصاح صيحته الخالدة في وجوه العمال الذين كان همهم جمع المال بأي طريقة، قائلاً لهم: (قبح الله رأيكم، فإن الله ـ تعالى ـ بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً).

وإذا كان دخول الأموال إلى بيت المال خضع للعدل والتحري، فإن خروجه منه لم يخضع لمثل ذلك، والمصادر التاريخية التي أعطت نماذج وأمثلة كثيرة على تحري خلفاء (بني أمية) العدل في جمع الأموال وجبايتها، هي نفسها التي تقدم أمثلة من التجاوزات التي كانت تحدث في إنفاق الأموال، سواء من الخلفاء وأبنائهم، أو من عمالهم وولاتهم، وهذا دليل على نزاهة المصادر التاريخية وأمانتها بصفة عامة، وأن مؤلفيها

لم يجاملوا الحكام، وكانت لديهم الجرأة والشجاعة لتسجيل كل مخالفة شرعية.

والحق أن بعض الخلفاء الأمويين قد تجاوزوا سنة الخلفاء الراشدين في نظرتهم إلى المال العام، وكان الراشدون ينزهون أنفسهم وأولادهم تماماً عن أموال المسلمين، ويحوطون بيت المال بالضمانات التي تحفظ الأموال وتصونها؛ حتى لا تمتد إليها يد من لا يستحق، لكن هذا الوضع تغيَّر كثيراً في العصر الأموي، ولم يعد هناك حد فاصل بين بيت المال المركزي في (دمشق) وبين مال الخلفاء، فأغدقوا بالمنح والعطايا والهبات على أبنائهم وأقربائهم وأنصارهم وشعرائهم الذين يمدحونهم ويروجون لأفكارهم وسياساتهم، وكذلك لم يعد هناك حد فاصل بين بيوت المال في الأقاليم والولايات وبين مال الولاة، الذين كانت بيوت المال تحت إشرافهم المباشر يأخذون منها ما يريدون، ويعطون من يشاءون.

وقد أدَّى ذلك إلى تضخُّم ثروات الخلفاء وأبنائهم وبعض ولاتهم، حتى تولَّى الخلافة (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه)، الذي بدأ عهده بالعكوف على سجلات الدولة، وتحرِّي الإقطاعات والهبات التي مُنحت لأمراء (بني أمية) وأتباعهم، وأخذ في رد الأموال التي ثبت أنها أُعطيت بغير حق إلى بيت مال المسلمين، وبدأ بنفسه، وعزل الولاة الذين افسدوا الحياة الإدارية والمالية، وعيَّن في مكانهم ولاة من أهل الخبرة والتقوى والصلاح.

وقد أدَّت سياسته الإصلاحية إلى نتائج باهرة في غضون فترات زمنية قصيرة (٩٩ـ ١٠١هـ)، واستقامت الأمور وتحقق العدل، وتوافر الحد

الأدنى من المعيشة الكريمة لكل إنسان في الدولة الإسلامية، التي امتدت حدودها شرقاً وغرباً، ولم يعد فيها من يستحق الصدقة، حتى ليَرَوي الإمام (الذهبي) عن (عبد الرحمن بن يزيد بن عمر بن أسيد) أنه قال: (والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ـ الكثير ـ فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح حتى يرجع بماله كله، قد أغنى عمر الناس).

انحراف أواخر خلفاء بني أمية عن الجادة:

لم يكن خلفاء الدولة الأموية المتأخرون على درجة عالية من الكفاءة السياسية والإدارية، والسهر على رعاية مصالح المسلمين، وتحرى العدل بصفة عامة كما كان خلفاء (بني أمية) الأوائل، وإنما كانت تنقصهم الكفاية والمقدرة السياسية، إلى جانب إفراطهم في حياة الترف، وعكوفهم على الملذات والشهوات، وتبديد الأموال وإنفاقها في وجوه غير مشروعة، وتركهم رعاية مصالح الأمة، وإهمالهم مقاصد الشريعة، فزالت دولتهم نتيجة لهذا السلوك المعوج، وقد فطن إلى ذلك خصمهم الخليفة العباسي (أبو جعفر المنصور) (١٣٦ـ ١٥٨هـ) فقال عنهم: (ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان، يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه، مع تسنمهم معالي الأمور، ورفضهم دنياتها، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم قصد الشهوات، وركوب الملذات من معاصي الله، جهلاً باستدراجه وأمناً لمكره، مع إطراحهم صيانة الخلافة، واستخفافهم بحق الرئاسة، وضعفهم عن السياسة، فسلبهم الله العز، وألبسهم الذل، ونفى عنهم النعمة).

مظاهر الحياة الاجتماعية:

كان المجتمع الإسلامي في العصر الأموي مجتمعاً شاباً متوقِّداً حياة وفتوة في كل شيء؛ ثراء عريض، وقوة عسكرية واقتصادية هائلة، ونهضة علمية في بواكيرها تنبىء بازدهار حضارة عظيمة، وتخلل تلك الحياة الجادة بعض مظاهر اللهو والتسلية البريئة للترويح عن النفوس.

مجالس الخلفاء وآدابها:

كان للخلفاء مجالس يعقدونها للمسامرة مع أقربائهم وأصدقائهم، وكان لتلك المجالس آداب وطقوس خاصة، في كيفية تعامل الناس مع الخليفة في حضرته، فيجب أن يكون كلامهم على قدر الحاجة، وأن تكون الفاظهم منتقاة، وكان الخلفاء يصونون مجالسهم عن الكذب والنفاق، وقلما كان يستمع الخلفاء الأمويون الأوائل إلى الغناء، وإنما كانوا يحبون سماع الشعر في مجالسهم، على حين ترخص المتأخرون منهم في سماع الأغاني كثيراً، وكانوا يظهرون للندماء والمغنين، ومن أشهر من فعل ذلك، وتبذَّل حتى أزرى بمنصب الخلافة في نظر الناس (يزيد بن عبد الملك) وابنه (الوليد).

الطعام والشراب:

كانت حياة العرب بسيطة، وبخاصة فيما يتعلق بالطعام، ولم يتجاوز أغلب طعامهم صنفاً أو صنفين، وكان أفضل طعامهم اللحم مع الثريد، ولكن تغير الحال بعد الفتوحات الإسلامية، واتساع الدولة وكثرة الأموال، ومخالطتهم الشعوب في البلاد المفتوحة، وكانت أكثر منهم مدنية، فعرفوا ألواناً من الطعام والشراب، واستخدموا أدوات للمائدة لم

يكونوا يعرفونها من قبل، فاستخدموا (الفوط) و(الملاعق) الخشبية والفخارية، التي كانت تأتيهم من (الصين)، وعرفوا (الموائد) الخشبية، وجلسوا على كراسي خشبية حولها، وكانوا من قبل يجلسون على الأرض ويأكلون بأيديهم.

وكان من عادة الخلفاء والأمراء والأغنياء إقامة الولائم لإطعام الناس، وكان للأكل مع الخلفاء آداب خاصة، فوق الآداب العامة المعروفة للطعام، فكما يقول (الجاحظ): (إن الأكل لم يكن للشبع وإنما للشرف، فعلى من يؤاكلهم أن يراعي ذلك وألا يكون شرهاً في تناول الطعام).

الملابس:

توسع المجتمع في العصر الأموي وتأنق في الملابس والأزياء، فلبس الناس الحرير والديباج والإستبرق، وبخاصة الشباب الذين كانوا يلبسون ملابس موشاة، وكانت الملابس تختلف من فئة إلى أخرى على قدر ثرائها ومراكزها الاجتماعية، فكانت ملابس الفقهاء تختلف عن ملابس الكُتَّاب، وهؤلاء تختلف ملابسهم عن ملابس الجند، وكان شيوخ القبائل ومن في منزلتهم من عليه القوم يرتدون الأقبية التي تصل إلى الركبتين، يعلوها جلباب فضفاض يتدلَّى إلى العقبين.

وكانت عناية النساء بالملابس والأزياء أكثر من عناية الرجال، وتكونت ثيابهن من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة، وعند خروج المرأة إلى الشارع فإنها ترتدي عباءة تغطى جسمها وتلف رأسها بمنديل يربط حول الرقبة، مثل (الإيشارب) الذي تستعمله النساء في الوقت الحاضر.

وتوسَّع النساء في استخدام الحلي والجواهر من اللآلىء واليواقيت والذهب وسائر أدوات التجميل. وإلى جانب التأنق في الملابس أحب الناس أنواع الطيب وأكثروا منها، واستخدموا الحناء، وخضَّبوا بها لحاهم وأيديهم، وفعل الخلفاء ذلك.

مكانة المرأة في المجتمع:

كانت للمرأة مكانة كبيرة وأثر واضح في الحياة العامة، ومن أشهر النساء: (سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب)، وكانت من أعلم النساء وأظرفهن، وأحسنهن أخلاقاً، وتذكر المصادر التاريخية أنَّ الشعراء كانوا يجتمعون عندها وكان لها ذوق رفيع في نقد الشعر، ومما يُذكر لها في هذا المجال أنه اجتمع عندها يوماً (جرير)، و(الفرزدق)، و(كُثير عزة)، و(جميل بثينة)، وأنشدوا بين يديها أشعارهم، فنقدت شعر كل منهم، ثم أجازت كل واحد بألف دينار. وتقرن بسكينة في هذا المجال (عائشة بنت طلحة)، وكانت نابغة في الأدب والسخاء كأبيها (طلحة) الجواد، وقد تزوج (مصعب بن الزبير) حاكم (العراق) في خلافة أخيه (عبد الله بن الزبير) (٦٧ ـ ٧٢هـ) كلاً من (سكينة) و(عائشة بنت طلحة)، بعد أن أمهر كل واحدة منهما مليون درهم. ومن ألمع النساء في ذلك العصر: (أم البنين) زوج الخليفة (الوليد بن عبد الملك)، وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبُعد النظر، وكانت لها مكانة كبيرة عند زوجها (الوليد) وكان يستشيرها في كثير من أمور الدولة.

وقد كثرت الجواري من سبايا الحروب في البيوت، مما كان له أثره البالغ في الحياة الاجتماعية، فقد نقلوا إلى البيت العربي عادات شعوبهم وتقاليدها في الطعام والشراب والملبس.

الاحتفال بالأعياد والمناسبات:

عيد الفطر وعيد الأضحى من أعظم المناسبات الدينية في الإسلام، يُظهِر فيهما المسلمون السرور، ويُدخلون البهجة على أنفسهم وأسرهم وجيرانهم.

كان الخلفاء يخرجون في يوم العيد للصلاة في موكب مهيب، يتقدمهم الجند، ويحيط بهم الأمراء وكبار رجال الدولة، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير، وتقُام الزينات، وتسطع المشاعل والقناديل في ليالي العيد، وكان لولاة الأقاليم مواكب تشبه مواكب الخلفاء.

حفلات الزواج:

تطورت حفلات الزواج في العصر الأموي لتُجاري ما أصبح عليه المجتمع من ترف وثراء، بعد أن كانت في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين غاية في البساطة والبعد عن التكلف، وبالغ الناس في المهور، وقد سبق أن ذُكر أن (مصعب بن الزبير) أمهر كلاً من زوجتيه (سكينة بنت الحسين) و(عائشة بنت طلحة) مليون درهم.

وكما بالغوا في المهور بالغوا في إقامة الولائم الحافلة بأطيب أنواع الطعام، وفي يوم الزفاف يلعب الفتيان بالرماح، ويتسابقون بالخيل، وتجلس النساء على النمارق وتتزين بالحُلي والجواهر الثمينة، وتكون العروس في أبهى صورة وأجمل زينة، يحيط بها أترابها، يغنين لها حتى تذهب إلى بيت زوجها.

وكانت تقام ـ أيضاً ـ حفلات لختان الأطفال، يُحييها المغنون وأصحاب الفكاهة، وهذا كان يحدث في بيوت الصحابة والتابعين، فيذكر (ابن قتيبة) في (عيون الأخبار) أن (عبد الله بن عباس) ـ رضي الله عنهما ـ دعا بعض اللعَّابين في حفل ختان بعض أولاده، فلعبوا بألعابهم، فأعطاهم أربعمائة درهم، كما أنَّ تلميذه (عطاء بن أبى رباح) استدعى اثنين من كبار المغنين وهما (الغريض) و(ابن سريج) في حفل ختان ولده، وكان الناس يقيمون الموائد الفاخرة المليئة بألوان الطعام في هذه المناسبات.

وسائل الترفيه والتسلية:

عرفت المجتمعات الإسلامية في ذلك العصر ضروباً مختلفة من اللهو واللعب والتسلية، وعلى رأسها الغناء الذي شغف به الناس كثيراً، فازدهر واصبحت له دور خاصة يقصدها الناس للسماع والمتعة، وشاع في المجتمع أن اتخذ بعض الأثرياء المترفين أناساً يضحكونهم ويدخلون السرور على أنفسهم، ويزيلون منها الملل، وهذا النوع من اللهو لا يوجد عادة إلا بعد أن تتحضَّر الأمة، وتسير أشواطاً كثيرة في حياة الترف، ومن ثم ظهرت طائفة من المضحكين، كان على رأسهم (أشعب بن جبير) مضحك (المدينة)، وكان أشرافها يعجبون به ويجالسونه، ويقيم عندهم أياماً في دورهم، وقد تناقل أهل (المدينة) فكاهات (أشعب) ونوادره كما يتناقل الناس اليوم النكات، وأصبح لكل مدينة أشعبها الذي يضحكها، وربما أكثر من أشعب.

وعرف المجتمع الإسلامي من وسائل اللهو والتسلية ألعاب النرد

والشطرنج، وقد تسامح بعض العلماء في ذلك، حتى يُروَى أنَّ (سعيد بن المسيب) وهو من أئمة التابعين سئُل عن اللعب بالنرد، فقال: (إذا لم يكن قماراً فلا بأس به)، والنرد هي لعبة (الطاولة) المعروفة الآن، أخذها العرب هي والشطرنج من الفرس.

وإلى جانب ذلك شغل بعض الناس أنفسهم بأنواع من الرياضة، كالصيد وسباق الخيل، وكان بعض خلفاء (بنى أمية) يحبون الصيد لفوائده الكثيرة. ورأى كثير من الناس في سباق الخيل تسلية وترويضاً لأنفسهم على ركوب الخيل، التي كانت وسيلة القتال الرئيسية، وأقام الأمويون حلبات لسباق الخيل، ويُروَى أن أول من أقام تلك المسابقات من خلفاء بني أمية هو الخليفة (هشام بن عبد الملك) (١٠٥ ـ ١٢٥هـ)، وكانت تشترك فيها أعداد كبيرة من الخيول، بلغت في إحدى المسابقات أربعة آلاف فرس.

ويجدر بالذكر أن كل ما سبق من عادات وتقاليد وضروب الحياة الاجتماعية كان سائداً في كل العالم الإسلامي، على الرغم من تنوع الأجناس التي ضمتها الدولة الأموية.

الأحوال الاقتصادية:

كثرت المصادر التي تحدثت عن الشؤون الاقتصادية والمالية، مثل كتاب (الخراج) لأبي يوسف المتوفى سنة (١٨٢هـ)، وكتاب (الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة (٢٢٤هـ)، غير أن هذه المصادر لا تُقدم لنا إحصاءات عن دخل الدولة الإسلامية في العصر الأموي، ولا شيئاً من ميزانياتها، وإنما هي أبحاث فقهية على وجه العموم، تبحث في

مسائل الغنائم والجزية والخراج وغير ذلك.

ويمكن أن نكوّن فكرة عن الأحوال الاقتصادية في ذلك العصر، من خلال دراسة مستوى المعيشة التي كان يحياها الناس على اختلاف مستوياتهم، واحتفالاتهم في مناسباتهم الاجتماعية، كالأعياد وحفلات الزواج والختان، ومن خلال الحركة العمرانية الكبيرة التي شهدها ذلك العصر، من بناء المدن والمساجد وتعبيد الطرق وغيرها من المنشآت، بالإضافة إلى الخدمات المجانية التي تقدمها الدولة للناس، كالعلاج وإعالة المحتاجين. وكل هذه المشروعات لم تكن لتقام إلا إذا كانت موارد الدولة المالية تسمح بذلك، كما أن السياسة المالية التي اتبعها (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) قضت على الفقر في ربوع الدولة، إلى الحد الذي كان لا يجد فيه عمال الصدقات فقراء يعطونهم منها، لأن الناس في كفاية من الرزق فأمر الخليفة أن يساعد من تلك الأموال من يريد الزواج من الشباب، ويعين من يبغي أداء فريضة الحج، وأن يشتري الأرقاء لتحريرهم.

موارد الدولة:

وتتمثل في:

١ـ خراج الأرض المفتوحة:

ويأتي على رأس موارد الدولة في العصر الأموي، وكانت تلك الأراضى مملوكة للدولة الإسلامية منذ الفتوحات الأولى في عهد (عمر بن الخطاب) ـ رضي الله عنه ـ الذي اجتهد وقرر بعد استشارة كبار الصحابة عدم تقسيم الأرض المفتوحة على المجاهدين، وجعلها ملكاً للدولة،

وأبقاها في أيدي أهلها يزرعونها، مقابل إيجار يدفعونه للدولة، وهذا الإيجار أو الخراج تنفق منه الدولة على الجيش والموظفين، وتقيم المرافق التي يحتاج إليها.

وكان هذا اجتهاداً عظيماً من (عمر رضي الله عنه)، لأنه أبقى الأرض في أيدي أصحابها، وهم من أهل الخبرة في فلاحتها، وضمن في الوقت نفسه مورداً مالياً ضخماً وثابتاً، ثم أقدم (عمر رضي الله عنه) على خطوة عظيمة الأهمية وذات دلالة كبيرة على فطنته الاقتصادية، فقد أمر بإعادة مساحة الأرض المفتوحة، وقسمها على حسب إنتاجيتها إلى ثلاثة أنواع، وفرض على كل نوع الخراج الذي يناسبه؛ لئلا يُظلَم الفلاحون، وليبذلوا طاقتهم في تحسين الإنتاج.

٢ـ غنائم الحرب:

وهي الأموال المنقولة من نقود وغيرها، وكانت بكميات كبيرة في ذلك الوقت، وكان خمسها يدخل بيت مال الدولة، على حين تُوزَّع الأربعة الأخماس على المجاهدين.

٣ـ الجزية المفروضة على أهل الكتاب:

وهم اليهود والنصارى، ومن في حكمهم كالمجوس؛ حيث عاملهم المسلمون فيما يتعلق بالجزية معاملة أهل الكتاب، وقد قنن الفقهاء قيمة الجزية، بعد استقراء تطبيقات الخلفاء، فقدروها بثمانية وأربعين درهماً للأغنياء، وأربعة وعشرين للمتوسطين، واثنى عشر للفقراء القادرين على الكسب، وأعفوا منها النساء والأطفال وكبار السن، ورجال الدين، والعاجزين عن الكسب، بل إن الفقراء العاجزين عن الكسب من أهل الكتاب فُرض لهم عطاء من بيت مال المسلمين.

٤ـ الزكاة:

تؤخذ من المسلمين، ومقاديرها معروفه في كتب الفقه، وتؤدى للدولة التي عدتها مورداً من مواردها المالية، تنفق منه في الأوجه التي حددتها الآية الكريمة: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠ ﴾. [التوبة: ٦٠].

٥ـ ضرائب التجارة الداخلة إلى البلاد الإسلامية أو الخارجة منها أو العابرة:

وكانت تمثل مورداً كبيراً من موارد الدولة؛ إذ كانت أهم الطرق التجارية وأعظمها تمر في ذلك الوقت ببلاد إسلامية، من حدود (الصين) في الشرق إلى (الأندلس) في الغرب.

وقد نظم المسلمون منذ وقت مبكر تحصيل هذه الضرائب، وهي المعروفة الآن برسوم الجمارك، ففرضوا على التجار المسلمين ربع عشر قيمة تجارتهم، وعلى التجار من أهل الذمة الذين هم من رعايا الدولة الإسلامية نصف العشر، وعلى التجار الكفار الذين هم من أهل الحرب العشر.

ولا يظنن أحد أنَّ في هذا تفريقاً بين التجار المسلمين ونظرائهم من أهل الذمة من رعايا الدولة؛ لأنَّ التجار المسلمين يدفعون زكاة أموال تجارتهم كلها بعد دفع ضريبة ربع العشر، في حين لا يدفع التجار من أهل الذمة شيئاً سوى نصف العشر المفروض على التجارة، فهم لا يدفعون زكاة لأنها لا تُفرَض إلا على المسلمين.

٦ـ الركاز:

وهو ما يُستخرج من باطن الأرض كالذهب والفضة والنحاس، فإذا كان المستخرَج من أرض مملوكة ملكية خاصة، فإن أصحابها يدفعون للدولة الخُمس، لأن الفقهاء جعلوا ذلك النوع من الأموال مثل الغنائم، التي يخصص خُمسها للدولة، أمَّا إذا استخرجت هذه المعادن من أراضي الدولة فإن ريعها يدخل بطبيعة الحال إلى بيت المال.

النشاط الاقتصادي:

الزراعة:

عنى العرب الفاتحون بالزراعة عناية عظيمة، واستفادوا في ذلك من خبرات ابناء البلاد المفتوحة، فعندما تم فتح (مصر) أمر (عمر بن الخطاب) واليه (عمرو بن العاص رضي الله عنهم) أن يَسأل أهلها عن أفضل الطرق للنهوض بها وباقتصادها، فأخبر أن أفضل طريقة للنهوض بها هي الزراعة؛ لأنها المورد الرئيسي لاقتصاد البلاد، وهذا يتطلب العناية بالنيل والترع المتفرعة عنه، وكذلك فعل (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) في (العراق) و(الشام).

وقد سار الأمويون على هذه السياسة، فاهتموا بنظام الري وإقامة الجسور وشق الترع وتطهيرها موسمياً، وبخاصة أنَّ الدولة كان يجري على أراضيها أعظم الأنهار وأكثرها طولاً، من (نهر النيل) في مصر إلى (دجلة) و(الفرات) وفروعهما في (العراق)، إلى أنهار الشام الرئيسية: (بردى) و(العاصي) و(اليرموك)، إلى نهري (جيحون) و(سيحون) في بلاد

(ما وراء النهر)، إلى الأنهار العديدة في (الأندلس)، بالإضافة إلى رقعة واسعة من أخصب الأراضي.

وقد عمل (الحجاج بن يوسف الثقفي) على إصلاح شؤون الزراعة أثناء ولايته على (العراق) و(المشرق)، فأصلح كثيراً من الأراضي التي لم تكن مزروعة، وأمر بعودة الفلاحين إلى قراهم، بعد أن رأى ما أصاب الزراعة من ضرر ونقص في المحاصيل؛ نتيجة هجرتهم إلى المدن للعمل في الأعمال الحرفية المتعلقة بالصناعة والتجارة.

وهذ الخطوة التي أقدم عليها (الحجاج) لإصلاح الزراعة أساء الناس فهمها، وعدُّوها من أخطائه؛ لأنه تدخل في حرية الناس، لكنها عند النظر الصحيح خطوة إيجابية من حاكم يفهم واجبات وظيفته، فأقدم على حل مشكلة خطيرة لا تزال كثير من الحكومات المعاصرة عاجزة عن حلها.

وقد اقتدى (خالد بن عبد الله القسري) والي (العراق) في عهد (هشام بن عبد الملك) (١٠٥ـ ١٢٥هـ) بما فعله (الحجَّاج) في النهوض بالزراعة؛ فأصلح مساحات شاسعة في منطقة المستنقعات، وزرعها وأضافها إلى الرقعة الزراعية.

ويجدر بالذكر أن الإسلام حث على تعمير الأرض واستصلاح البور منها للزراعة؛ لقول الرسول ﷺ: (من أحيا أرضاً ميتة فهي له)[١].

والمقصود بالأرض الميتة: الأرض البور أو الصحراوية التي لم تكن مزروعة، فمن يصلحها تكن له، وقد حذا الصحابة حذو الرسول ﷺ،

(١) رواه البخاري كتاب: الزراعة باب: من أحيا أرضاً مواتاً.

والأمويون من بعدهم في تشجيع الناس على الزراعة وعاونوهم على ذلك.

الصناعة:

ازدهرت في العصر الأموي الصناعات الحربية التي تحتاج إليها الجيوش من سيوف ودروع ورماح وحراب، وأُنشئت الترسانات البحرية اللازمة لصناعة السفن في مدن الساحل، كالإسكندرية و(دمياط) و(رشيد) في (مصر)، و(عكا) و(صور) و(صيدا) و(بيروت) في (الشام)، وازدهرت كذلك الصناعات الخشبية اللازمة لأعمال بناء البيوت والمساجد والمستشفيات، وأثاث المنازل، وصناعات الخزف والأدوات المنزلية.

وعرف العصر الأموي صناعات النسيج وكانت أكثر الصناعات ازدهاراً في (مصر) و(الشام) و(العراق) و(فارس) وبلاد (ما وراء النهر)، وكانت تصنع من الصوف والقطن والكتان والحرير، بالإضافة إلى صناعات المواد الغذائية القائمة على الإنتاج الزراعي والحيواني، وصناعات الجلود.

وأقام الأمويون دوراً لصك النقود؛ والدنانير الذهبية والدراهم الفضية في عهد (عبد الملك بن مروان) وما تلاه، وهذه الصناعة صعبة لأنها تحتاج إلى استخراج الذهب والفضة من باطن الأرض، بعد استخلاصهما مما هو ممزوج بهما من رمال ومعادن أخرى، ثم صهره وتشكيله حسب الحاجة.

وإذا كانت الصناعات في عصر الأمويين بسيطة، ولا تقارن بما وصلت إليه في الوقت الحاضر، فإنها كانت كافية ووافية بمتطلبات الحياة والأحياء في زمانها.

التجارة:

كان العرب قبل ظهور الإسلام وسيطاً تجارياً مهماً بين الشرق والغرب؛ حيث كانت التجارة القادمة من الشرق وبخاصة من (الهند) و(الصين) تمر ببلاد العرب عبر طريقين رئيسين:

الطريق الأول: يمر (بعدن) في جنوب غرب (اليمن) على مدخل (البحر الأحمر) الجنوبي؛ حيث تأتى السفن، بعضها يواصل سيره في البحر الأحمر إلى (ميناء القلزم) (السويس) - في (مصر)، ثم تفرغ حمولتها، وتنقل البضائع بالقوافل إلى الموانىء المصرية على (البحر المتوسط)، وبخاصة (ميناء الإسكندرية)، ثم تشحن في السفن بحراً مرة أخرى إلى (أوربا)، وبعضها الآخر يفرغ حمولته في (عدن)، ثم تحملها القوافل براً عبر الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية، المطل على (البحر الأحمر)، وتمر بمكة المكرمة، التي كانت مركزاً تجارياً مهماً، وبعضها يواصل سيره إلى (ميناء غزة) في (فلسطين).

والطريق الآخر: يمر عبر (الخليج العربي)، حيث تواصل السفن سيرها وتفرغ حمولتها في أقصى شماله، حيث (ميناء الأيلة) غربي (البصرة) الحالية في (العراق)، ثم تنقل البضائع على القوافل براً عابرة (العراق) إلى (الشام)؛ حيث تفرغ حمولتها في موانيه مثل (عكا) و(صور) و(صيدا) و(بيروت) و(اللاذقية) و(أنطاكية)، ثم تُشحن بحراً إلى (أوربا).

وقامت التجارة في أغلبها على جلب الحرير من (الصين)، والتوابل والبخور من (الهند)، وكانت هذه المواد مطلوبة على نطاق واسع في (أوربا)، وكان العرب يقومون بدور فعال ونشط في عملية التجارة هذه،

واستفادوا منها فائدة كبيرة، بل إنَّ بعضهم مثل عرب (الحجاز) وبصفة خاصة (قريش) كانت حياتهم الاقتصادية تقوم على التجارة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة قريش فقال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾.

وفي العصر الأموي لم يعد العرب وسيطاً تجارياً لنقل البضائع بين الشرق والغرب، وإنما أصبحوا سادة الموقف كله، بعد امتلاكهم الطرق التجارية البحرية والبرية، من (الصين) إلى (الأندلس)، فبالإضافة إلى ما سبق الحديث عنه بسط المسلمون سيادتهم على الطريق الذي يبدأ من شمالي (الصين)، ثم يجتاز هضاب وسط آسيا وسهولها ـ بلاد (ما وراء النهر) ـ ثم يتفرع إلى عدة طرق، تنتهي كلها إلى موانىء (البحر الأسود) و(البحر المتوسط)، ويمر معظمها في الأراضي الإسلامية، ثم تنقل التجارة إلى (أوربا الشرقية) والجنوبية، أمَّا (أوربا الغربية) و(شمالي إفريقيا) و(الأندلس)، فكانت معظم تجارتها تأتي من الطريق الأول عبر الموانىء المصرية.

وقد سيطر المسلمون على النشاط التجاري كله في تلك الرقعة الواسعة من الأرض وأصبحت بلادهم تصدِّر البضائع والمنتجات إلى بلاد الشرق والغرب. فتصدر إلى (الصين) المنسوجات الصوفية والقطنية والكتانية، والبُسُط، والمصنوعات المعدنية، وخام الحديد، وسبائك الذهب والفضة، كما كانت تستورد منها الحرير.

ولم تقتصر الأرباح المالية التي كانت تجنيها الدولة الأموية على مجرد التبادل التجاري، بل كانت تحصل على أموال طائلة من التجارة العابرة على هيئة رسوم جمركية، كما خلقت هذه العملية التجارية الواسعة فرص

عمل لعشرات الآلاف من الناس، وبخاصة في مدن الموانىء على سواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية، مثل (عدن) و(حضرموت)، و(صحار) و(هرمز)، و(البحرين)، و(القطيف)، و(سيراف)، و(البصرة)؛ فازدهرت هذه المدن ازدهاراً كبيراً، كما ازدهرت الموانىء الأخرى المطلة على (البحر الأحمر)، كميناء (جدة) و(السويس)، أو المطلة على (البحر المتوسط) من (أنطاكية) شمالاً حتى (غزة) جنوباً، وكذلك موانية الجنوبية في (مصر) و(شمالى إفريقيا)، مثل (دمياط) و(الإسكندرية) و(طرابلس الغرب) و(تونس).

وقد ساعد على ازدهار تلك الحركة التجارية العالمية اهتمام الدولة الأموية بإنشاء الطرق، وتعبيدها وتأمينها، فكانت القوافل تسير في طرق آمنة، تنتشر على جوانبها الفنادق والاستراحات والأسواق.

الحركة العمرانية في العصر الأموي:

شهد العصر الأموي نهضة عمرانية كبرى، استفاد فيها المسلمون من التراث، ومن الطرز المعمارية التي وجدوها في البلاد المفتوحة سواء أكانت فارسية أم بيزنطية أم مصرية، وطبعوها بطابع عربي إسلامي، ووضعوا بذور فن عماري متميز عن غيره من الفنون المعمارية الأخرى، وساعدهم على ذلك الثراء الواسع الذي كانت تتمتع به الدولة.

إنشاء المدن الجديدة:

أنشأ الأمويون عدداً من المدن في المشرق والمغرب، ولا يزال معظمها قائماً معروفاً حتى الآن، فأنشأ (عقبة بن نافع) في عهد (معاوية بن ابى سفيان) (٤١ـ ٦٠هـ) مدينة (القيروان) في (تونس)، وقد اصبحت

عاصمة الشمال الإفريقى كله في العصر الأموي، ومركزاً من أعظم المراكز الحضارية الإسلامية.

وفي عهد (عبد الملك بن مروان) (٦٥ـ ٨٦هـ) أنشأ أخوه (عبد العزيز بن مروان) والي (مصر) مدينة (حلوان) جنوبي (الفسطاط)، وأنشأ (حسان بن النعمان الغساني) مدينة (تونس)، وأنشأ (الحجاج بن يوسف الثقفي) مدينة (واسط) في (العراق) بين (البصرة) و(الكوفة)، ومدينة (قم) في منطقة الجبال في بلاد فارس، بين (ساوة) و(أصفهان).

وأنشأ (سليمان بن عبد الملك) في عهد أخيه (الوليد) (٨٦ـ ٩٦هـ) مدينة (الرملة)، كما أنشأ الخليفة (هشام بن عبد الملك) (١٠٥ـ ١٢٥هـ) مدينة (الرصافة) بالقرب من (الرقة) في (العراق)، وأنشأ (الحكم بن عوانة الكلبي) مدينة (المحفوظة) في (السند)، و(عمر بن محمد بن القاسم الثقفي) مدينة (المنصورة) في (السند) أيضاً.

القصور الأموية:

كشفت الحفريات الأثرية منذ القرن الماضي ومطلع القرن الحالي عن العديد من القصور التي بناها الخلفاء الأمويون؛ وبخاصة في صحراء الشام؛ لأنهم كانوا يحبون البادية ويحنون إليها، استمتاعاً بالهواء الطلق، وطلباً للراحة والهدوء من عناء العمل السياسي والإداري.

ومن القصور التي اكُتشفت أخيراً (قصر عمرة) الذي اكتشفه (موزيل) سنة (١٨٩٨م) ويقع على نحو خمسين ميلاً شرقي (عمَّان) عاصمة (الأردن) حالياً، ويرجح الباحثون أنَّ هذا القصر بُني للخليفة (الوليد بن عبد الملك)، وهو يتكون من قسمين رئيسيين، هما: قاعة الاستقبال، والحمام الساخن.

أما قاعة الاستقبال فهي بناء مستطيل تغطيه ثلاثة أقبية نصف أسطوانية، يفصلها عن بعضها عقدان عرضيان، وهذا الطراز المعماري طراز فارسي أخذه المسلمون من (إيران)، وتوجد في نهاية القبو الأوسط لقاعة الاستقبال حنية العرش، وهي مغطاة بقبو نصف أسطواني، أقل ارتفاعاً من سقف أقبية قاعة الاستقبال، وتحلَّى حنية العرش بصورة الخليفة وهو جالس على عرشه، ويكتنف الحنية من جهتيها غرفتان لتغيير الملابس.

ويقع القسم الثاني وهو الحمام الساخن إلى يسار قاعة الاستقبال، ويتكون من ثلاث غرف رئيسية؛ الغرفة الباردة ويُدخل إليها من قاعة الاستقبال، ويغطيها قبو نصف أسطواني محوره عمودي على محور قاعة الاستقبال، ويليها الغرفة الدافئة، وهي مغطاة بقبو متقاطع، يليها الغرفة الساخنة، وهي مغطاة بقبة نصف كروية محمولة على أربعة مثلثات كروية.

وهذا القصر مبني من الحجر الجيري الأحمر، وتغطى الأقبية طبقة سميكة من الملاط، كما تغطي الأرضية ببلاطات من الرخام، تجري بأسفلها مواسير البخار الساخن، وهي تشبه حمامات (روما).

ومن اللافت للنظر الصور التي وُجدَت على جدران ذلك القصر، ومن أهمها: صورة الخليفة وهو جالس على عرشه، ويحف به شخصان، وفوقه مظلة محمولة على عمودين حلزونيين، وتوجد على عقد المظلة كتابة كوفية تطرق إليها التلف، وصورة أخرى لستة أشخاص، اشتهرت بأنها تمثل صور أعداء الإسلام.

والصور الست في صفين، كل ثلاث في صف، يلبسون ملابس فاخرة، وفوق رؤوس أربعة منهم وجدت كتابة بالعربية واليونانية، لا تزال باقية، وهم من اليسار إلى اليمين (قيصر الروم) في الصف الأول، ويليه (روذريق) ملك (القوط) الأندلسي في الصف الخلفي، والثالث في الصف الأول هو (كسرى فارس)، والرابع في الصف الخلفي فوقه كلمة (النجاشى).

وقد استنتج الباحثون من هذه الصورة، ومن ترتيب وضع الملوك فيها أن الذين في الصف الأول هما (كسرى) و(قيصر) من ملوك الإمبراطوريات الكبيرة، أمّا اللذان في الصف الخلفي فهما من ملوك الدول الصغيرة، كما استنتجوا أن الصورة الخامسة لملك (الصين)، والسادسة لأحد ملوك (الترك)، وهؤلاء هم الذين فتح المسلمون بلادهم في العصر الأموي، أو فرضوا عليها سيادتهم.

ومن القصور التي اكتُشفَت أيضاً القصر المسمَّى بقصر (خربة)، الذي يُنسب إلى الخليفة (هشام بن عبد الملك)، ويقع على بعد ثلاثة أميال شمالي مدينة (أريحا) في (فلسطين) وكان قصراً شتوياً، زُيِّنت جدرانه بصور ورسوم آدمية وحيوانية، كما وُجد اسم الخليفة (هشام بن عبد الملك) مسجلاً على أحد الجدران، وصورة فتاة تحمل باقة من الورد، ولوحة تمثل فتيات يرقصن وقد صبغن شفاههن وأظافر أيديهن وأرجلهن بصبغة ذات لون قرمزي، بالإضافة إلى رسوم نباتية تحمل شجرة يحيط بها من اليمين صورة أسد ينقض على غزال، ومن اليسار غزالان بين أزهار، وكلها ملونة بألوان زاهية.

ومن القصور التي اكتُشفَت سنة (١٨٤٠م) (قصر المشتى)، ويُنسَب إلى الخليفة (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) (١٢٥ـ ١٢٦هـ)، وهو قصر صحراوي غير تام البناء، وقد تهدّم معظمه، ونقلت أهم زخارفه التي كانت محفورة في الحجر الجيري في الواجهة الجنوبية، إلى (برلين)، مهداة من السلطان العثماني (عبد الحميد) إلى الإمبراطور الألماني (غليوم الثاني)، وقد وُضعَت في (متحف برلين) من سنة (١٩٠٣م).

والقصر عبارة عن بناء مستطيل مساحته نحو (١٤٤) متراً مربعاً، وحائطه الخارجي تكتنفه أبراج نصف دائرية، ويقع المدخل في وسط واجهته الجنوبية، والقصر مقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام رئيسية، وتتجه من الشمال إلى الجنوب، والمبانى الداخلية مبنية من الطوب، والمدخل يكتنفه برجان على شكل نصف منحنيين، ويتكون شكل الواجهة الجنوبية من عدة مثلثات معتدلة ومقلوبة؛ بحيث تظهر في مجموعها على شكل خط منكسرٍ، وفي وسط كل مثلث وردة، وبأسفلها في المثلثات المعتدلة موضوعات زخرفية متنوعة، بعضها يمثل حيوانين متقابلين يفصلهما إناء، وبالأرضية زخارف نباتية جميلة محفورة على الحجر، ويلي المدخل ردهة توصل إلى فناء مربع التخطيط، مساحته (١٤) متراً مربعاً، ويكتنف ردهة المدخل من جهتيها حجرات مكونة من طابقين، كما توجد غرفة مستطيلة إلى يمين المدخل، في حائطها الجنوبي محراب، استنتج الباحثون أنها كانت مسجد القصر أو مصلاه.

ويلي الفناء الأول فناء كبير مساحته (٦٧) متراً مربعاً، يليه الجناح الملكي، ويتكون من قاعة تؤدي بدورها إلى قاعة العرش، وهي مكونة من ثلاث حنيات نصف دائرية، ويكتنفها من جهتيها بيوت مكونة من

زوجين من الغرف، وتوجد حول قاعة العرش أربع مجموعات من هذه البيوت.

وهذه القصور المكتشفة تدل على تقدم فن العمارة في عهد الدولة الأموية، وتأثره بالطرز المعمارية الفارسية والبيزنطية، وعلى الثراء الذي كانت عليه الدولة، مما مكَّن خلفاءها في بناء تلك القصور الباذخة، ومعظمها لم يكن للسكنى الدائمة، وإنما كانت مشاتي ومصايف للإقامة الموسمية المؤقتة.

المساجد:

ازدهرت حركة بناء المساجد في عهد الأمويين ازدهاراً كبيراً، فوسعوا المساجد التي كانت موجودة من قبل، (كالمسجد الحرام) في (مكة المكرمة)، و(المسجد النبوي) في (المدينة المنورة)، و(جامع عمرو بن العاص) في (الفسطاط)، و(المسجد الكبير) في (صنعاء) باليمن، كما أقاموا العديد من المساجد الجديدة، ومن أشهرها:

(مسجد قبة الصخرة) الذي أنشأه (عبد الملك بن مروان) في (القدس)، و(المسجد الأقصى) الذي أنشأه ابنه (الوليد)، و(المسجد الأموي) الكبير في (دمشق) الذي أنشأه (الوليد) أيضاً.

المسجد الحرام:

كانت (الكعبة المشرفة) في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين على البناء نفسه الذي أقامته (قريش) بعد السيل؛ الذي دمر (الكعبة) قبل بعثة النبي ﷺ، واستمرت على ذلك إلى أن هُدمت أثناء خلافة (عبد الله بن الزبير) (٦٤ـ ٧٣هـ)، فقام ببنائها من جديد على قواعد (إبراهيم)، عليه

السلام، وأدخل فيها حجر (إسماعيل)، واستشهد على ذلك بحديث النبي ﷺ الذي خاطب فيه (عائشة) بقوله: (لولا أن قومك حديثو عهد بشرك أو بجاهلية لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين باباً شرقياً وباباً غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحجر)[1].

وبعد مقتل (ابن الزبير) وانتهاء دولته سنة (٧٣هـ) هدم الأمويون (الكعبة) وأعادوا بناءها إلى ما كانت عليه قبل زيادة (ابن الزبير).

وكانت مساحة (المسجد الحرام) نفسه فضاء ولم يكن له جدران في عهد النبي ﷺ و(أبي بكر الصديق رضي الله عنه)، فلما كثر الناس في عهد (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) اشترى الدور المجاورة للبيت الحرام، وهدمها وأضافها إلى مساحته، وأقام له جدراناً دون قامة الرجل، وكذلك فعل (عثمان بن عفان) و(عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم).

واستمر هذا الوضع حتى كان عهد (الوليد بن عبد الملك) (٨٦ـ ٩٦ هـ)، فزاد في مساحته، وبنى سوره على عمد من الرخام، ووضع صفائح من الذهب على باب (الكعبة).

المسجد النبوي في المدينة المنورة:

ظل مسجد رسول الله ﷺ على حالته التي بُني عليها حتى عهد (عمر بن الخطاب رضي الله عنه)، الذي زاد في مساحته، وأطال جدرانه، ثم أضاف (عثمان بن عفان رضي الله عنه) إليه مساحات جديدة لكثرة المصلين، وضيقه بهم، وبناه من الحجارة، وجعل له عمداً من الحجارة، وسقفاً من الساج.

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم ١٣٣٣ كتاب الحج باب: نقض الكعبة وبنائها.

وظل المسجد كذلك إلى عهد (الوليد بن عبد الملك)، فأمر ابن عمه (عمر بن عبد العزيز) واليه على (المدينة) (٨٧ـ ٩٣ هـ) بهدمه وإعادة بنائه وتوسعته، فأدخل فيه حجرات النبي ﷺ.

وعني (الوليد) بإعادة بناء المسجد عناية عظيمة، فأرسل إلى (عمر بن عبد العزيز) أموالاً كثيرة لهذا الغرض، وثمانين عاملاً من عمال البناء من الشام وقبط مصر، وكميات كبيرة من الرخام والفسيفساء، وقد عهد (عمر) بالإشراف على البناء إلى واحد من كبار التابعين هو (صالح بن كيسان). وقد بنى أساس المسجد من الحجارة، وجعلت عمده من الحجارة المحشوة بالحديد والرصاص، وأقيمت له المآذن، وفتحت له عدة أبواب، منها (باب جبريل)، عليه السلام، و(باب النساء).

واستمر العمل في البناء نحو ثلاث سنوات، وفي سنة (٩٠هـ) زار الخليفة (الوليد) (المدينة) ليطمئن على سير العمل في المسجد بنفسه، وقد أعجب بالبناء، وبما عليه من روعة تليق بمسجد رسول الله ﷺ، وقسَّم أموالاً كثيرة على أهل المدينة احتفاءً بهذه المناسبة، وخطب فيهم الجمعة من فوق منبر النبي ﷺ.

مسجد قبة الصخرة:

أمر (عبد الملك بن مروان) سنة (٧٢هـ) ببناء مسجد فوق الصخرة التي عرج الرسول ﷺ من فوقها ليلة الإسراء والمعراج.

المسجد الأقصى:

وقد بناه (الوليد بن عبد الملك) بالقرب من ساحة (مسجد قبة الصخرة)، وزينه بالفسيفساء والرخام، واحتفل ببنائه كاحتفاله بالمسجد

الحرام (بمكة المكرمة) ومسجد الرسول ﷺ في (المدينة المنورة).

المسجد الأموي في دمشق:

يُعد (المسجد الأموي) من أعظم المساجد التي أنشئت في العصر الأموي، بناه (الوليد بن عبد الملك)، وبذل فيه جهداً كبيراً، ولم يبخل عليه بالأموال، فجاء شامخاً عظيماً.

وأصل مكان المسجد كان معبداً وثنياً في عهد (الرومان)، ثم تحول إلى كنيسة في العهد المسيحي، ثم فُتحت (دمشق) في عهد (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) صلحاً، واقتسم المسلمون بناءً على ذلك الصلح كل شيء في المدينة مع أهلها، فقُسمت الكنيسة، وجعل المسلمون نصفها مسجداً، وبقي النصف الآخر كنيسة تقام فيها شعائر أهلها، وكان هذا آية من آيات السماحة؛ حيث لم يجد المسلمون غضاضة أن يتجاور المسجد والكنيسة، فضلاً عن كونهما في بناء واحد.

وظل الأمر كذلك حتى عهد (الوليد)، الذي تفاوض مع المسيحين، وعوَّضهم عن نصيبهم مساحة كبيرة من الأرض يقيمون عليها كنيسة كبيرة مستقلة، وهدم البناء القديم كله وأقام عليه المسجد، الذي جاء مستطيل الشكل، له ثلاثة مداخل، وأربع مآذن، وجعل في وسطه صحناً مكشوفاً، تحيط به أربعة أروقة، أكبرها رواق القبلة، وغُطيت أرضيته بالرخام، وكذلك جدرانه إلى ارتفاع قامة الإنسان، وفوق الرخام زخارف من الفسيفساء المذهبة، وجعل سقفه من الرصاص، وبه ستمائة سلسلة من الذهب تتدلى منها قناديل للإنارة.

وقد عنى الخليفة ببناء المسجد عناية واضحة، فأشرف على بنائه

بنفسه، وأنفق عليه أموالاً طائلة، بلغت خمسة ملايين دينار، تعرَّض بسببها للانتقاد، فأجاب بأنه يريد أن يكون المسجد الذي هو أعظم رمز للإسلام لائقاً بدولته الكبيرة، واستمر العمل في المسجد تسع سنوات (٨٧ـ ٩٦هـ)، عمل فيه نحو عشرة آلاف عامل، حتى جاء المسجد آية من آيات فن العمارة الإسلامي، حتى ليذكر (ياقوت الحموي) أن الناس كانوا يعدونه من عجائب الدنيا.

وعندما آلت الخلافة إلى (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) رأى أن الخليفة (الوليد) بالغ في الإنفاق على بناء المسجد، وهمَّ بنزع سلاسل الذهب وبيعها، ووضع ثمنها في بيت المال، ولما علم أهل (دمشق) بعزمه اشتد عليهم الأمر وكرهوه وهم الذين كانوا قد انتقدوا (الوليد) من قبل، ولكن قبل أن ينفذ (عمر) ما عزم عليه جاء إلى (دمشق) وفد رسمي من قبل إمبراطور الروم، لبحث العلاقة بين الدولتين، فزار ذلك الوفد (المسجد الأموي)، وكان معهم قسيس، فلما دخلوا المسجد أغمى عليه، فحملوه إلى دار الضيافة، فسأله رفاقه بعد أن أفاق عما حدث له، فقال: كنا نتحدث أن بقاء العرب ودولتهم لن يطول، فلما رأيت ذلك البناء الشامخ حصل لي هم وغم، وأدركت أن بقاءهم سيطول، فحدث لي ما رأيتم، وكان يسمع ذلك الحوار أحد المسلمين العارفين باليونانية التي كانوا يتحاورون بها، فنقل ذلك إلى (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه)، فقال: إذا كان المسجد قد أغاظهم إلى هذا الحد، فلن أنزع منه شيئاً، بل زاده جمالاً وروعة وبهاءً، فأمر بترصيع محرابه بالجواهر الثمينة، وعلق له قناديل من ذهب وفضة.

العناية بالطرق:

اهتمت الدولة الأموية اهتماماً كبيراً بإنشاء الطرق، لربط أجزائها التي

امتدت من (الصين) إلى (الأندلس)، وهي مسافة تبلغ (١٢) ألف كيلو متر من الشرق إلى الغرب، ولتيسير الاتصال ببعضها، ولتحقيق كثير من الأغراض، منها ما هو عسكري لتيسير حركة الجيوش، ومنها ما هو اقتصادي لتسير حركة التجارة، ومنها ما هو إداري لتسهيل وصول الأخبار عن طريق رجال البريد، ومنها ما هو ديني لتسهيل وصول حجَّاج بيت الله الحرام من كل أنحاء الدولة إلى (مكة المكرمة)، لأداء فريضة الحج، وإلى (المدينة المنورة)؛ لزيارة مسجد النبي ﷺ.

وقد قسم الأمويون الطرق التي تربط العاصمة (دمشق) بعواصم الولايات ـ (كالفسطاط) و(القيروان) و(قرطبة) و(الكوفة) و(البصرة) و(خراسان)، و(ما وراء النهر) ـ إلى مسافات صغيرة محددة، وجعلوا بها علامات تحمل أرقاماً؛ ليعرف المسافرون المسافات بين المدن والأقاليم، وهي مثل العلامات الإرشادية المستخدمة الآن في الطرق الإقليمية والدولية. وعمرت الطرق بالخانات والاستراحات، ليستريح الناس من وعثاء السفر، فوق ما كانت تتمتع به من أمن وأمان.

وكان الناس يسافرون عبر هذا الطرق، ويتنقلون بين مدن الشرق والغرب دون تصريح مرور أو جواز سفر، فالدولة كلها على امتداد حدودها وطنهم، في أي مكان منه يستطيع الإنسان أن يسكن ويتزوج ويتاجر، دون مضايقة أو طلب إقامة.

الحركة العلمية:

كانت الحركة العلمية بمختلف اتجاهاتها في العصر الأموي امتداداً للحركة العلمية التي بدأت منذ عهد النبي ﷺ، ونمت في عهد الخلفاء

الراشدين، وأخذت العلوم تتمايز عن بعضها، ويصبح لكل منها مدارسه ورجاله، بعد أن كانت العلوم ممتزجة بعضها في بعض، فالرسول ﷺ كان يعلم المسلمين أمور دينهم ودنياهم، ويفسرّ لهم ما أبهم عليهم من القرآن الكريم، وبعد وفاته أصبح أصحابه المعلمين للتابعين.

ولم يكن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على درجة واحدة من العلم والفقه، بل كانوا متفاوتين في ذلك، ولعل أفضل ما صورً تباين الصحابة في درجات العلم قول (مسروق) ـ وهو أحد التابعين:

(جالست أصحاب محمد ﷺ، فوجدتهم كالإخاذ ـ غدير الماء ـ فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض صدرهم) أي: رواهم جميعاً.

وقد اشتهر عدد من كبار الصحابة بالعلم دون غيرهم كالخلفاء الراشدين، وأم المؤمنين (عائشة)، و(ابن عباس)، و(ابن مسعود)، و(زيد بن ثابت الأنصاري)، و(أبي الدرداء)، و(أبي هريرة)، و(معاذ بن جبل) رضوان الله عليهم جميعاً، غير أن هؤلاء الصحابة بقي بعضهم في (المدينة المنورة) و(مكة المكرمة)، وتفرق بعضهم الآخر في الأمصار المفتوحة، ولم يكن الواحد منهم يُعلّم علماً واحداً، وإنما يتكلّم في علوم كثيرة، وربما تحدث في جلسة واحدة في الفقه والحديث والتفسير والمغازي، والأدب شعره ونثره.

وكانت المراكز الرئيسية للحركة العلمية عندئذ هي المساجد، ثم نشأت المكاتب لتحفيظ الصبيان القرآن الكريم، وتعليمهم مبادىء العلوم

الإسلامية، ثم بدأت العلوم يمتاز بعضها عن بعض، وعُرف رجال بالتفسير وآخرون بالحديث، واختص غيرهم بالفقه، ولا يعني هذا أن المفسر أو الفقيه لا يعرف غير ما تخصص فيه من العلم واشتهر به، وإنما يوضع الرجل بين رجال العلم الذي برَّز فيه وأصبح حجة وإماماً، فالإمام (مالك بن أنس) اشتهر بالفقه وصار صاحب مذهب فقهي معروف، لكنه من رجال الحديث الكبار، ويعرف التفسير؛ فلو لم يكن كذلك ما استطاع أن يضع القواعد الفقهية ويستنبط الأحكام من أدلتها التفصيلية، لأن الفقه يقوم على الاستنباط من القرآن والسنة.

ثم خطت الحركة العلمية خطوة كبيرة في ذلك الوقت، ببدء حركة تدوين العلوم، ولم يكن المسلمون يفعلون ذلك من قبل، وإنما اعتمد الصحابة على الذاكرة في الحفظ. والذين أُثِر عنهم أنهم دونوا بعض أحاديث الرسول ﷺ من الصحابة، عدد قليل، (كأبي هريرة) و(عبد الله بن عمرو بن العاص)، الذي سمح له النبي ﷺ بتدوين أحاديثه؛ فدوَّنها في صحيفة كان يقول عنها: الصادقة، ويفخر أن ليس بين الرسول وبينه فيها أحد.

ومنذ منتصف القرن الأول للهجرة تقريباً بدأت حركة التدوين بداية متواضعة، فيُروَى أن (معاوية بن أبي سفيان) أمر بتدوين ما يرويه له في مجلسه(عبيد بن شرية) من تواريخ ملوك (اليمن) القدامى وغيرهم، وكان (معاوية) مولعاً بمعرفة تواريخ الأمم السابقة، وأن (عبد العزيز بن مروان) والي (مصر) (٦٥ ـ ٨٥ هـ) أرسل إلى (كثير بن مرة الحضرمي) أن يكتب له ما سمع من أصحاب رسول الله ﷺ إلا أحاديث (أبي هريرة) فإنها موجودة عنده. ثم جاءت الخطوة الحاسمة في التدوين، حين أمر

(عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) أثناء خلافته(٩٩ ـ ١٠١ هـ) (أبا بكر بن حزم) والي (المدينة) أن يدوِّن أحاديث رسول الله ﷺ خوفاً من ضياع العلم وذهاب العلماء، ثم تتابعت حركة التدوين، فدوَّن (ابن شهاب الزهري) و(يزيد بن أبي حبيب المصري) وغيرهما، وانتقل التدوين إلى العلوم الأخرى فدون الفقه والتفسير وغيرهما.

وشجع الخلفاء الأمويون الحركة العلمية بصفة عامة، وحركة التدوين بصفة خاصة، وبدأ في عصرهم ظهور طبقة المعلمين، لأن الخلفاء أنفسهم كانوا مهتمين بتعليم أولادهم، وبخاصة العلوم الإسلامية، فاختار لهذه المهمة أصلح المعلمين الذين كانوا يسمون أيضاً بالمؤدبين، ولم تكن مهمتهم تعليمية فحسب، بل كانت تربوية أيضاً.

ومن أشهر هؤلاء المعلمين: (دغفل بن حنظلة الشيباني)، واختاره (معاوية بن أبي سفيان) لتعليم ابنه (يزيد) وتهذيبه، و(الضحاك بن مزاحم) و(عامر بن شراحبيل الشعبي) و(ابن أبي المهاجر)، وهؤلاء الثلاثة من كبار التابعين، واختارهم (عبد الملك بن مروان) لتعليم أولاده وتأديبهم.

وقد حذا أشراف الناس والأغنياء حذو الخلفاء في تعليم أولادهم على أيدي مربين ومؤدبين، مما أعطى دفعة للحركة العلمية في ذلك العصر.

وعلى الرغم من ضياع المدونات والمؤلفات التي كُتبت في العصر الأموي، فإن معظم محتوياتها وصلت إلينا في المؤلفات الكثيرة التي أُلفت في العصر العباسي، فمرويات (الطبري) عن غزوات الرسول ﷺ، وسيرته أخذها ممن رواها عن كتَّاب المغازي والسيرة الأوائل الذين ضاعت مؤلفاتهم، (كأبان بن عثمان بن عفان)، و(عروة بن الزبير) وغيرهما.

علم التفسير:

هو العلم الذي يبحث في بيان معاني آيات القرآن وأسلوبه وبيانه، إلى غير ذلك مما حفلت به كتب التفسير من مصطلحات هذا العلم، كالمجمل والمفصّل، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول.

ومع كون الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أقدر الناس على فهم القرآن الكريم، فإنهم اختلفوا في فهمه على حسب اختلاف قدراتهم العقلية، واشتهر منهم بالتفسير وفهم القرآن الكريم: الخلفاء الراشدون، و(ابن مسعود)، و(ابن عباس)، و(أبيٌّ بن كعب)، و(زيد بن ثابت) رضي الله عنهم.

وعن هؤلاء وغيرهم تلقى التابعون، وعلى رأسهم: (مجاهد بن جبير)، و(عطاء بن أبي رباح)، و(عكرمة مولى ابن عباس)، و(سعيد بن جبير)، و(سعيد بن المسيب)، و(الحسن البصري)، و(محمد بن سيرين)، وبعض هؤلاء ألفوا كتباً في التفسير، لكنها ضاعت ولم تصل إلينا، كما ضاعت كتب التفسير التي أُلِّفت بعد عصر التابعين، ومنها ما نُسب إلى (سفيان بن عيينة) و(وكيع بن الجراح)، (وعبد الرزاق) وكثير غيرهم.

والخلاصة أنه لم يصل إلينا كتاب في التفسير يرجع إلى العصر الأموي، وأول كتاب في التفسير وصل إلى أيدي الناس هو كتاب (معاني القرآن) للفرّاء المتوفى سنة (٢٠٧ هـ)، ثم توالت بعده مطولات كتب التفسير، ولعل من أشهرها تفسير الإمام (الطبري) المتوفى سنة (٣١٠ هـ)، المعروف باسم (جامع البيان عن تأويل آي القرآن).

علم الحديث:

الحديث في اللغة: مطلق الكلام، وفي الاصطلاح: هو كلام النبي ﷺ، الذي هو المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم.

وقد حرص الصحابة على حفظ كل ما يسمعونه من النبي ﷺ، وكانوا يسألونه ليبين لهم ما غمض عليهم فهمه من القرآن، وهذا من وظائفه لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. [النحل: من ٤٤].

وقد أمرهم الله تعالى باتِّباع النبي في كل ما يقول أو يفعل، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾. [الحشر: من ٧].

وحذَّرهم من مخالفته ﷺ، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

[النور: من٦٣].

وسار المسلمون على نهج الرسول ﷺ، وتلقفوا كل ما يتلفظ به، يحفظونه عن ظهر قلب ويعملون به، وكان الحديث هو أول العلوم التي اشتغلوا بها، لكنهم لم يدونوه في حياة النبي ﷺ، ويُروى أنه هو نفسه نهاهم عن ذلك، لئلا يختلط بالقرآن، فقال: (لا تكتبوا عنّي، فمن كتب عني غير القرآن فليمحهِ)[1]، بالإضافة إلى أن الصحابة أنفسهم كانوا

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم ٣٠٠٤ كتاب الزهد والرقائق باب التثبيت في الحديث وقيم كتابة العلم.
وتمام الحديث: . . . وحدثوا عني ولاحرج ومن كذب عليَّ فليتبوّا مقعده من النار.

يتحرجون من الإكثار من رواية الحديث، تهيباً وخوفاً من الخطأ والنسيان.

تدوين الحديث:

ظلت أحاديث رسول الله ﷺ يتناقلها العلماء مشافهة جيلاً بعد جيل، حتى نهاية القرن الأول الهجري، وإن دوَّن بعض الناس أحاديث رسول الله (كعبد الله بن عمر) الذي أذن له النبيﷺ بكتابة الحديث في حياته، وما رواه البخاري من أن (أبا شاه اليمني)، التمس من رسول الله ﷺ أن يكتب شيئاً من خطبته عام الفتح، فقال: (اكتبوا لأبي شاه)[1]، ثم أمر الخليفة (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) بتدوين الحديث خوفاً من ضياعه بموت العلماء الذين يحفظونه، فكتب إلى (أبي بكر بن حزم) والي (المدينة) وغيره من ولاة الأقاليم، وطلب منهم جمع أحاديث النبي ﷺ وتدوينها، ومن ثم بدأ المسلمون يُقبلون على ذلك، وبمضي الزمن تضاعفت جهود العلماء في هذا الميدان، ومن أشهر الرجال الذين اشتغلوا بجمع الحديث وروايته وتدوينه في العصر الأموي: (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري) المتوفى سنة (١٢٤هـ)، و(ابن جريج المكي) المتوفى سنة (١٥٠ هـ)، و(ابن إسحاق) المتوفى سنة (١٥١ هـ)، و(معمر بن راشد اليمني) المتوفى سنة (١٥٣ هـ)، و(سفيان الثوري) المتوفى سنة (١٦١ هـ)، و(مالك بن أنس) المتوفى سنة (١٧٩ هـ)، غير أن هؤلاء كلهم عدا (ابن شهاب الزهري) عاشوا صدر حياتهم في العصر الأموي وآخرها في العصر العباسي.

(١) صحيح البخاري رقم ٢٤٣٤ كتاب: في اللقطة باب: كيف تُعرف لقطة أهل مكة وفي الترمذي برقم ٢٦٦٧ كتاب: العلم من رسول الله ﷺ باب: ماجاء في الرخصة فيه.

لكن الخطوات الحاسمة في تدوين الحديث، ووضع المنهج العلمي الدقيق لتوثيقه، وقبول روايته، وتصنيفه إلى صحيح وحسن وضعيف، ووضع علومه، وقواعد الجرح والتعديل - أي نقد رجال السند - كل ذلك جاء في القرن (٣ هـ = ٩ م)، بظهور أئمة الحديث (كالبخاري) و(مسلم)، و(الترمذي)، و(النسائي)، و(أبي داود) وغيرهم، وذلك في العصر العباسي.

علم الفقه:

وهو من أجل العلوم الإسلامية، فهو يُعرِّف المسلم كيف يعبد ربه، بما افترضه عليه من صيام وصلاة وزكاة وحج، وينظم معاملات المسلمين ويقننها في البيع والشراء والتجارة والزراعة وسائر شؤون حياتهم.

ويعد الفقهاء من أكثر علماء الإسلام أثراً في حياة المسلمين، لقوله ﷺ: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[1].

وكان النبي ﷺ يعلم الصحابة ويفقههم في أمور دينهم، ثم توَلّى بعده الصحابة تلك المهمة، وبخاصة بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، ثم اتسع نطاق (علم الفقه) نتيجة لزيادة المشكلات والقضايا التي تحتاج إلى فتاوى وحلول، وأصبح له علماء متخصصون، لهم قدرة على استنباط الأحكام الفقهية من الكتاب

(١) رواه البخاري برقم ٧١ كتاب: العلم باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ورواه مسلم برقم ١٠٣٧ كتاب: الزكاة باب: النهي من المسألة.
ورواه الترمذي برقم ٢٦٤٥ كتاب: العلم من رسول الله ﷺ باب: اذا أراد الله بعبد خيراً
ورواه ابن ماجة برقم ٢٢٠ كتاب: المقدمة باب: فضل العلم والحث على طلب العلم.

والسنة، وعلى الاجتهاد لإيجاد أحكام للقضايا التي لم يرد لها نص في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، لأن النصوص متناهية، في حين أن المشكلات والقضايا غير متناهية ومتجددة، ولا بد لها من حلول، فالشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ومعنى الصلاحية أن يكون لها حل للمشكلات وإجابة عن كل الأسئلة، ومن ثم اجتهد الفقهاء في هذا الميدان، واختلفت اجتهاداتهم طبقاً لفهمهم الكتاب والسنة؛ ونتيجة لذلك ظهرت المذاهب الفقهية المعروفة، وتراكم تراث فقهي هائل، أخذ يتزايد بمرور الزمان.

وفي العصر الأموي ظهر إمامان جليلان من أئمة الفقه الكبار، هما (أبو حنيفة النعمان) و(مالك بن أنس).

أمَّا أولهما فقد وُلد في (الكوفة) سنة (٨٠ هـ) في خلافة (عبد الملك بن مروان)، وتوفى سنة (١٥٠ هـ) في خلافة (أبي جعفر المنصور العباسي)، أي أنه عاش أغلب حياته في العصر الأموي.

وهو من أصل فارسي، تلقى الفقه على كثير من كبار العلماء، منهم (أبو جعفر الصادق)، و(إبراهيم النخعي)، و(عامر بن شراحبيل الشعبي)، و(الأعمش)، و(قتادة)، وغيرهم، واشتهر باجتهاده، وقوة حجته، وحسن منطقه، ودقته في استنباط الأحكام، وهو صاحب المذهب الحنفي المعروف، الذي ألَّف فيه ونشره بين الناس تلاميذه العظام، ومن أبرزهم (أبو يوسف) المتوفى سنة (١٨٢ هـ) قاضي القضاة في عهد الخليفة (هارون الرشيد)، و(محمد بن الحسن الشيباني) المتوفى سنة (١٨٩ هـ). (وزفر بن هذيل) المتوفى سنة (١٥٨ هـ) في عهد (الوليد بن عبد الملك)، وتوفي سنة (١٧٩ هـ) في عهد (هارون الرشيد)، أي أنه عاش

نحو نصف عمره في العصر الأموي، وأكثر من نصفه الآخر في العصر العباسي.

وأما ثانيهما فقد نشأ (مالك بن أنس) وتفقَّه وروى الحديث في (المدينة) وترك كتاباً عظيماً هو (الموطأ)، الذي يجمع بين الفقه والحديث، والإمام (مالك) صاحب المذهب المالكي المعروف الذي انتشر في (مصر) و(المغرب العربي).

وقد عاصر هذين الإمامين الجليلين عدد آخر لا يقل عنهما علماً وفقهاً، مثل: (الأوزاعي) إمام أهل (الشام) المتوفى سنة (١٥٧ هـ)، و(الليث بن سعد) إمام أهل (مصر)، المتوفى سنة (١٧٥ هـ)، غير أن مذهب هذين الإمامين الجليلين اندثر بعدهما؛ لأنهما لم يجدا تلاميذ يواصلون نشر مذهبيهما.

علوم اللغة العربية:

ظهرت بعض علوم اللغة كالنحو والصرف والعروض في العصر الأموي، وكان الناس قبل ظهور الإسلام وبعده بفترة حتى عهد (علي بن أبي طالب رضي الله عنه) يتحدثون بلغة عربية، سليمة الأداء، فصيحة النطق، بالفطرة والسليقة اللغوية، دون أن يعرفوا نحواً أو صرفاً، غير أن الأمر اختلف بعد دخول كثير من أبناء البلاد المفتوحة في الإسلام؛ حيث بدأ ظهور الخطأ واللحن في اللغة، ومن ثم ظهرت الحاجة إلى علم لضبط النطق السليم للكلمات العربية.

نشأة علم النحو:

يُعد أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب رضي الله عنه) أول من أشار

بوضع قواعد علم النحو، حيث كلَّف أحد ولاته وكتَّابه وهو (أبو الأسود الدؤلي) المتوفى سنة (٦٩هـ) بوضع قواعد علم النحو، ويروي (أبو الأسود) نفسه أنه دخل على أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب رضي الله عنه) فوجد في يده رقعة، فسأله عنها، فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد، فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه، وألقى الرقعة إلى (أبي الأسود)، فوجد مكتوباً فيها: الكلام كله اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبىء به ـ حيث يدل على الحدث وزمانه ـ والحرف ما أفاد معنى، ثم قال (علي) لأبي الأسود: انحُ هذا النحو وأضف إليه ما وقع لك، فقال (أبو الأسود): فوضعت باب العطف والنعت، ثم بابي التعجب والاستفهام، إلى أن وصلت إلى باب: إن وأخواتها ماخلاً لكنَّ، فلما عرضتها على (عليٍّ رضي الله عنه) أمرني بضم لكنَّ إليها، وكنت كلما وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه، إلى أن حصلت ما فيه الكفاية، فقال (علي رضي الله عنه): ما أحسن هذا النحو الذي نحوت، ومن هنا ظهر علم النحو.

ولما كان (أبو الأسود) من أهل البصرة، فقد ورثوا عنه حبه للنحو، والاهتمام به، وكانوا أول من اشتغل به، فطوروه، وجددوه وأضافوا إليه ما زاده بياناً ووضوحاً، ودوَّنوا فيه المؤلفات المبكرة، ومن هؤلاء: (يحيى بن يعمر)، و(عنبسة بن معدان)، و(عيسى بن عمر الثقفي) المتوفى سنة (١٤٩ هـ)، أحد علماء مدرسة (البصرة) في النحو.

وعلى يد (عيسى بن عمر) تتلمذ أشهر علماء النحو واللغة في ذلك العصر وهو (الخليل بن أحمد) المولود سنة (٩٦هـ)، والمتوفى سنة (١٧٠هـ)، وهو صاحب معجم (العين) الذي هو أول معجم في العربية،

وواضع علم العروض، الخاص بأوزان الشعر العربي ومعرفة بحوره.

ثم تتلمذ على يد (الخليل بن أحمد الفراهيدى) عدد من النحاة، يأتي في مقدمتهم (سيبويه) (عمرو بن عثمان) إمام النحاة، وصاحب (الكتاب) أشهر مؤلَّف في النحو العربي. وتُوفِّي (سيبويه) وهو في الثانية والثلاثين من عمره سنة (١٨٠هـ).

علم السير والمغازي والتاريخ:

وهو يعد من أوائل العلوم التي اهتم بها المسلمون الأوئل، وبخاصة أبناء الصحابة؛ حيث حرص آباؤهم على تعليمهم مغازي الرسول ﷺ كما كانوا يعلمونهم القرآن الكريم، بالإضافة إلى شغفهم بمعرفة ما قام به الرسول ﷺ والذين معه من أجل الدعوة، ومن ثم اتجهوا إلى دراسة السير والمغازي، وأخذها من مصادرها الوثيقة، من آبائهم وأهليهم الذين شهدوا الأحداث، وشاركوا في الغزوات، وكانوا يسألونهم مثلاً: كيف كانت غزوة (بدر)؟ ومن هم الذين شهدوها؟ ومتى كانت الهجرة إلى (الحبشة)؟ وكان الصحابة يجيبون عن أسئلتهم إجابة شاهد العيان، الذي رأى وسمع.

وكان من الطبيعي أن ينشأ هذا العلم في مدينة رسول الله ﷺ، فهي البيئة التي شهدت معظم تلك الأحداث، ومنها بدأت أولى خطوات التدوين والتأليف في السيرة والمغازي، ومن أوائل علماء السيرة والمغازي:

أبان بن عثمان:

أبوه الخليفة (عثمان بن عفان رضي الله عنه)، وُلد سنة (٢٠هـ) بالمدينة، وكان من فقهاء (المدينة) المعدودين، ومن كبار رواة الحديث،

تتلمذ لأبيه وغيره من كبار الصحابة، وتعلم على يديه كثير من علماء الحديث والسيرة في مقدمتهم: (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري).

وعلى الرغم من اشتغاله بالحديث والفقه، فإن شهرته في العلم بالمغازي والسير جعلته من علمائها البارزين، وتوفى في نهاية القرن الأول الهجري.

عروة بن الزبير بن العوام:

وُلد في (المدينة) سنة (٢٦هـ)، وتتلمذ على يد خالته أم المؤمنين السيدة (عائشة)، وروى عنها حديث النبي ﷺ ومغازيه، واشتهر (عروة) بأنه من فقهاء (المدينة)، مثل (أبان بن عثمان)، غير أن شهرته بالمغازي والسير كانت أكبر، وكانت له مؤلفات كثيرة، ذكر (ابن سعد) في كتابه (الطبقات) أنه أحرقها في يوم (الحرة)، وهي الواقعة الحربية المشهورة سنة (٦٣هـ) في (المدينة)، وقد حزن كثيراً على فقدها، وتوفي (عروة) سنة (٩٤هـ).

شرحبيل بن سعد:

وهو ثالث ثلاثة من كتاب الطبقة الأولى من أهل (المدينة) في علم السير، نشأ في (المدينة)، وأخذ العلم عن الصحابة، حتى صار علماً من أعلام السير والمغازي، ويروي أنه كان أعلم الناس بالمغازي وبخاصة أهل (بدر)، وقد تُوفِّي سنة (١٢٣هـ).

وهب بن منبه:

وُلد في قرية (زمار) بجوار (صنعاء) باليمن، وهو واحد من رجال الطبقة الأولى من علماء السيرة والمغازي، ومن العلماء الموسوعيين الذين كتبوا في علوم شتَّى، فكان مصدراً من مصادر علوم أهل الكتاب، ومن الثقاة في تاريخ الأنبياء.

وقد أَلَّف (وهب) مؤلفات كثيرة، لم يصل إلينا منها شيء، وإن

وجدت مؤخراً في مدينة (هيدلبرج) بألمانيا أوراق بردى، يقال إنها قطعة من كتاب المغازي لوهب بن منبه، تحوي معلومات عن (بيعة العقبة)، وحديث (قريش) في (دار الندوة)، وتدبيرها لقتل الرسول ﷺ، والاستعداد للهجرة إلى (المدينة).

ثم تلا هذه الطبقة طبقة أخرى، واصلت عملها في مجال التأليف والكتابة في السيرة والمغازي، من أبرزهم (محمد بن مسلم بن شهاب الزهري)، الذي امتاز على معاصريه بكثرة الكتابة والتدوين، غير أن مؤلفاته ضاعت ولم يصل إلينا منها شيء، وعلى الرغم من ذلك فإن علمه حفظه لنا تلاميذه الكثيرون، وكان من أعظمهم في مجال السيرة والمغازي:

محمد بن إسحاق:

وُلد في (المدينة) سنة (٨٥هـ) في خلافة (عبد الملك بن مروان)، وتتلمذ لأبيه الذي كان محدثاً فقيهاً، ولغيره من كبار التابعين في (المدينة)، مثل: (القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق)، و(سالم بن عبد الله بن عمر)، و(أبان بن عثمان بن عفان)، و(نافع مولى عبد الله بن عمر)، و(أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف)، و(محمد بن مسلم بن شهاب الزهري)، ثم رحل (ابن إسحاق) إلى (مصر) سنة (١١٥ هـ)، والتقى بعلمائها الكبار، وفي مقدمتهم: (يزيد بن أبي حبيب)، وزار (الإسكندرية)، ثم عاد إلى (المدينة) ليواصل دراسته، ثم رحل إلى (العراق) بعد قيام الدولة العباسية، وقضى فيها بقية حياته، حتى تُوفِّي سنة (١٥١هـ).

وهناك إجماع بين العلماء على إمامة (ابن إسحاق) لعلم السيرة والمغازي، فقد حفظ في كتابه معظم روايات السابقين وآثارهم العلمية، وكل من أتى بعده عالة عليه في هذا العلم كما قال الإمام (الشافعي).

ولابن إسحاق كتابان:

أحدهما عنوانه (كتاب الخلفاء)، وهو مفقود حتى الآن.

والآخر: كتاب (السيرة والمبتدأ والمغازي) وهو أقدم كتاب وصل إلينا عن سيرة الرسول ومغازيه، وأوفاها علماً، وإذا كان لم يظهر إلى الوجود كاملاً حتى الآن، فإنه جاء إلينا في صورة تكاد تكون كاملة عن طريق (عبد الملك بن هشام)، المتوفًّى سنة (٢١٨هـ)، الذي أخذ سيرة (ابن إسحاق) ورواها عن شيخه (زياد بن عبد الله البكائي)، الذي رواها مباشرة عن شيخه (ابن إسحاق).

وقد قام (ابن هشام) بتهذيب سيرة (ابن إسحاق)، وحذف كثيراً من الشعر والروايات التي لم يرَ ضرورة لذكرها، وقد عرف عمله هذا بسيرة (ابن هشام)، ولا شك أنه أسدى إلى العلم بصفة عامة وإلى علم السيرة والمغازي بصفة خاصة خدمة جليلة، بحفظه هذا السفر الضخم الذي كان مصدراً لكل كُتَّاب السيرة والمغازي بعد ذلك، مثل (الواقدي) المتوفًّى سنة (٢٠٧هـ)، وتلميذه (محمد بن سعد) المتوفى سنة (٢٣٠هـ)، و(البلاذري) المتوفى سنة (٢٧٩هـ)، و(ابن قتيبة) المتوفى سنة (٢٧٦هـ)، و(الطبري) عمدة المؤرخين المسلمين على الإطلاق، المتوفى سنة (٣١٠= ٩٢٢م).

حركة الترجمة من اللغات الأجنبية:

حافظ الأمويون على التراث الثقافي للبلاد التي كانت تحت حكمهم، في (الإسكندرية) (بمصر)، و(بيروت)، و(دمشق) و(أنطاكية) في (الشام)، و(نصيبين) و(حران) في (العراق)، و(جنديسابور) في (فارس)،

وكانت تلك المدن هي أعظم مراكز العلم القديمة.

وقد تأخر المسلمون في البداية في نظرهم إلى العلوم الأجنبية، نظراً لانشغالهم بالجهاد وتوطيد الدولة الإسلامية، وتأسيس العلوم العربية والإسلامية التي سبق الحديث عنها، ولعدم معرفتهم على نطاق واسع باللغات الأجنبية.

ولا يعني ما سبق أن الأمويين أهملوا العناية بتلك العلوم الأجنبية، وترجمة بعضها إلى اللغة العربية، فقد شغف (خالد بن يزيد بن معاوية)، وهو من أمراء (بني أمية) بالكيمياء، التي كانت تسمَّى في ذلك الوقت (علم الصنعة)، وأحضر بعض العلماء من (مصر) إلى (دمشق)، ليترجموا له بعض الكتب من اليونانية إلى العربية، ويذكر (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) أنه رأى بنفسه مؤلفات لخالد بن يزيد، منها: كتاب في الحراريات، وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة.

ويذكر (القفطي) من مترجمي العصر الأموي الطبيب (ماسر جويه) الذي ترجم كتاباً في الطب للخليفة (عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه)، كما يذكر (ابن النديم) ـ أيضاً ـ أن (سالماً) كاتب الخليفة (هشام بن عبد الملك) ترجم رسائل (أرسطو) إلى تلميذه (الإسكندر الأكبر)، وهي رسائل في السياسة.

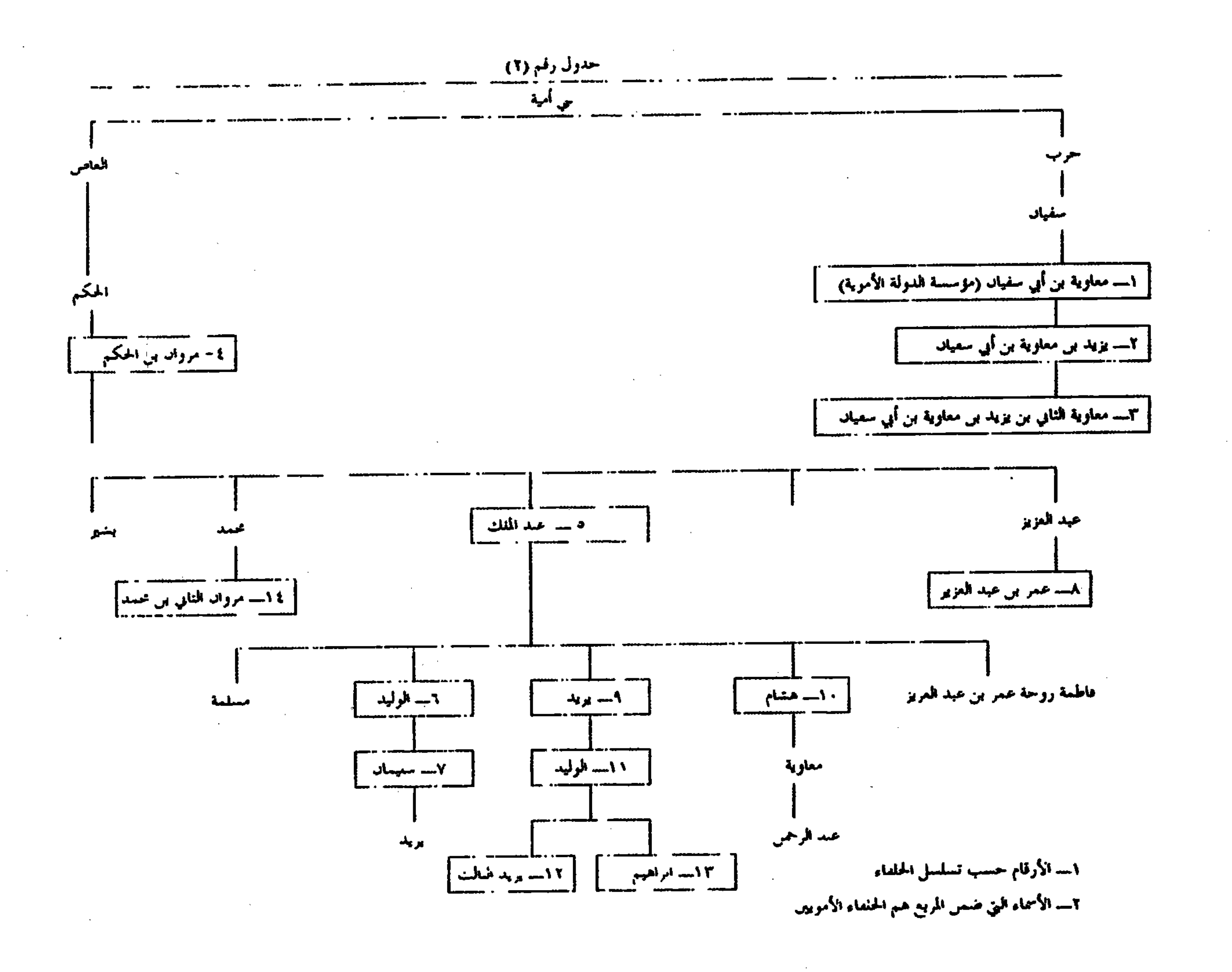
وعلى أية حال فإن ذلك كان بداية متواضعة لحركة الترجمة، فرضتها ظروف الدولة وصراعاتها في الداخل والخارج، وحسْب الأمويين أنهم حافظوا على تلك الثروة الهائلة، وصانوها من الضياع، ولولا ذلك ما وجد العلماء في العصر العباسي شيئاً يترجمونه.

جدول رقم (١)

الخلفاء الأمويون (٤١ ـ ١٣٢هـ) (٦٦١ ـ ٧٥٠م)

اسم الخليفة	السنة الهجرية	السنة ميلادية
١ـ معاوية بن أبي سفيان	٤١	٦٦١
٢ ـ يزيد الأول بن معاوية بن أبي سفيان	٦٠	٦٨٠
٣ـ معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان	٦٤	٦٨٣
٤ـ مروان بن الحكم	٦٤	٦٨٣
٥ـ عبد الملك بن مروان	٦٥	٦٨٥
٦ـ الوليد بن عبد الملك	٨٦	٧٠٥
٧ـ سليمان بن عبد الملك	٩٦	٧١٥
٨ ـ عمر بن عبد العزيز	٩٩	٧١٧
٩ـ يزيد الثاني بن عبد الملك	١٠١	٧٢٠
١٠ـ هشام بن عبد الملك	١٠٥	٧٢٤
١١ـ الوليد الثاني بن يزيد بن عبد الملك	١٢٥	٧٤٣
١٢ـ يزيد الثالث بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٦	٧٤٤
١٣ـ ابراهيم بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٧	٧٤٤
١٤ـ مروان الثاني بن محمد بن مروان بن الحكم	١٢٧ـ١٣٢	٧٤٤ ـ ٧٥٠

☆☆☆


جدول رقم (٢)
بنو أمية
حرب
سفيان
١ــ معاوية بن أبي سفيان (مؤسسة الدولة الأموية)
٢ــ يزيد بن معاوية بن أبي سفيان
٣ــ معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان
العاص
الحكم
٤ - مروان بن الحكم
عبد العزيز
٨ــ عمر بن عبد العزيز
٥ ــ عبد الملك
محمد
بشر
١٤ــ مروان الثاني بن محمد
فاطمة روجة عمر بن عبد العزيز
١٠ــ هشام
معاوية
عبد الرحمن
٩ــ يزيد
١١ــ الوليد
١٣ــ ابراهيم
١٢ــ يزيد الثالث
٦ــ الوليد
٧ــ سليمان
يزيد
مسلمة
١ــ الأرقام حسب تسلسل الخلفاء
٢ــ الأسماء التي ضمن المربع هم الخلفاء الأمويين

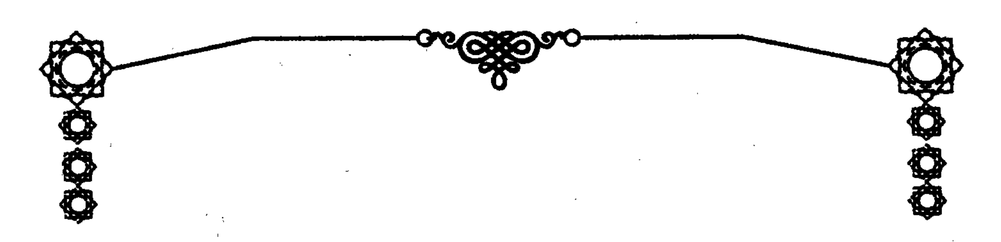


الخاتمة

وأخيراً بعد أن قرأ القارىء الكريم هذا الكتيب الوجيز في تاريخ وحضارة الدولة الأموية أرجوا أن يكون قد ألّم ولو بشيء بسيط عن هذا التاريخ المجيد والحضارة الخالدة التي قد نشرت الإسلام في أصقاع المعمورة، نشرت الحب والإيمان والعلم والثقافة والأخوة، وكانت حامية لهذا الدين الحنيف الذي تكفله رب العزة بالحفظ حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾. [الحجر :٩]

ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة والتوفيق لما يحبه ويرضاه... والحمد لله رب العالمين...

☆☆☆



الفهرس

القسم الثاني

موجز عن الدولة الأموية